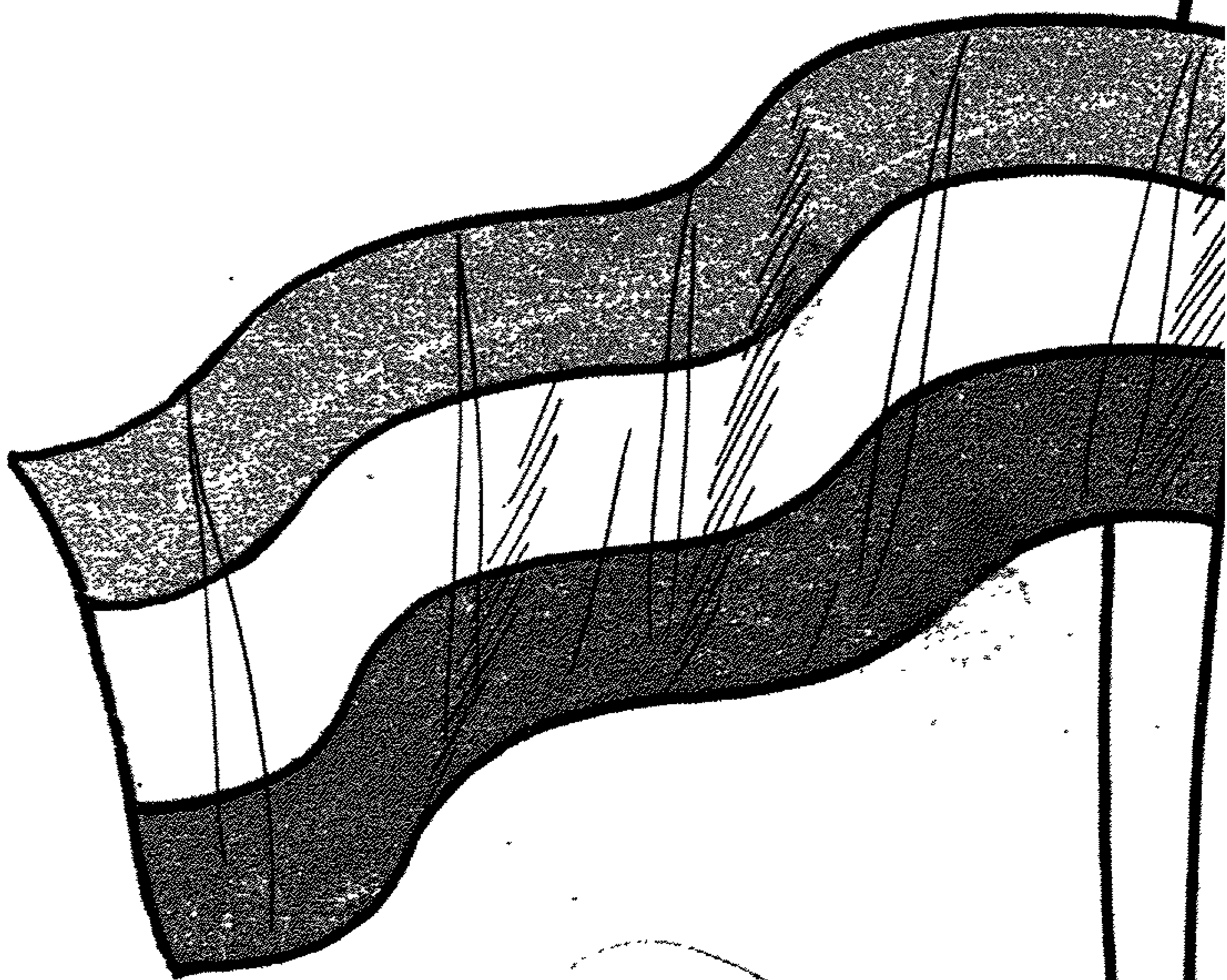
الدكتور مكي شبيكة

استاذ التاريخ بجامعة الخرطوم



مختصر
تاريخ السودان الحديث

تاريخ السودان الحديث

مختصر
تاريخ السودان الحديث

تأليف

مكي شبيكة

استاذ التاريخ بجامعة الخرطوم

الطبعة الثانية

المقدمة

هذه الفصول لمختصر تاريخ السودان الحديث كانت محاضرات ألقيتها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة وأصدرها المعهد كتاباً من سلسلة مطبوعاته في سنة ١٩٦٣ . ونفدت الطبعة وعلمت من دور الكتب ان الطلبات توالت عليهم من قراء الشعوب العربية ومن طلبة المدارس الثانوية في السودان واتفقت مع دار الثقافة ببيروت على اصدار طبعة اخرى تلبية لتلك الطلبات .

والكتاب يسرد قصة تطورات المجتمع السوداني السياسية منذ ان تغلغل النفوذ العربي الاسلامي بين ارجائه وطبعه بطابعه حتى ادى الى تأسيس دولة الفونج العربية الاسلامية والى ان وقفت بالقصة على اعتاب الحرب الثانية . والحقبة التي يعالجها الكتاب ما هي الا اختصار وتركيز لكتابي السودان « عبر القرون » والذي نفدت طبعته الأولى في أقل من سنة وستصدرها دار الثقافة ايضاً ان شاء الله في طبعة ثانية .

١٢ مايو ١٩٦٥ مكي شبيكه

الفصل الأول

الاسلام والعروبة

عندما تم فتح مصر على يد عمرو بن العاص في عهد سيدنا عمر بن الخطاب وصلت الجيوش الاسلامية الى أسوان وكانت تقع وراء الشلال الأول مملكتان نوبيتان مسيحيتان.الشمالية منها تدعى المقرة وعاصمتها دنقلا العجوز والثانية تدعى علوة وعاصمتها سوبا جنوبي الخرطوم بقليل ، وهناك الجزء الشمالي من علوة يتاخم المقرة ويسمى بمملكة الابواب . أما في الشرق فتمتد قبائل البجة في الصحراء ما بين النيل والبحر الأحمر . وأول اشتباك جاد بين الدولة الاسلامية في مصر ومملكة المقرة حدث في سنة ٦٥٢ م في ولاية عبدالله ابن ابي السرح حيث وصل جند الاسلام إلى دنقلا العاصمة ورميت بالمنجنيق وانتهى الامر على صلح يدفع بمقتضاه النوبيون بقطا سنويا عماده ثلثمائة وستين رأساً من الرقيق وأن يسمح للمسلمين باجتياز بلاد النوبة غير مقيمين بها بالمثل للنوبة للديار المصرية وتفضل المسلمون بامداد النوبيين ببعض الحبوب والملابس ويحافظ النوبيون على المسجد الذي ابتناه المسلمون في دنقلا وعليهم كنسه وإسراجه وتكرمته وأن لا يمنعوا عنه مصلياً .

اتصالات اولى بين المسلمين والنوبة :

وأول اتصال ذكرته لنا المصادر بين الدول الاسلامية في مصر وبين

البجة كان في سنة ٧٢٥ م حيث قام المسلمون بغزو على بلاد البجة رداً على اعتداء قاموا به على المسلمين وعقد صلح بين الفريقين تعهد فيه البجة بدفع ثلاثمائة من الابل الصغيرة وأن يدخلوا ريف مصر مجتازين غير مقيمين وأن لا يقتلوا مسلماً أو ذميا وألا يؤوا عبيد المسلمين . ويظل وكيلهم في الريف رهينة في يد المسلمين . ويتضح لنا من تلك العهود والمواثيق أن الدولة الاسلامية ما كانت لترمي إلى سياسة الضم والتوسع جنوب أسوان بل اكتفت بتأمين حدودها الجنوبية وطريق التجارة التقليدي بين مصر والسودان ولعل فقر البلاد المتاخمة لمصر وقحطها منعهم من ضمها .

وتعاقدت أحداث كثيرة امتنع فيها النوبة والبجة عن دفع ما تعهدوا به وتعدوا على الحدود المصرية ووجهت الحملات التأديبية ضدهم وفي كل حملة ينضم اليها بعض العرب ويحتمل أن بعضهم يبقى في بلاد النوبة أو البجة. ومما ساعد على تغلغل القبائل العربية في بلاد السودان سعيهم وراء المرعى وجذبتهم معادن الذهب في الصحراء الشرقية وحدث اختلاط بين العرب الوافدين وسكان المنطقة من البجة ولم يكن هناك من فرق بين حياة الجانبين وكلما طاب المقام لبعض القبائل تتابع غيرهم وأصبحوا في عزة ومتعة،وتذكر لنا الروايات حملة كبيرة قام بها محمد بن عبدالله القمّى في سنة ٨٤٥ م في عهد الخليفة المتوكل العباسي بجيش بلغ تعداده نحو عشرين ألفاً وتبعته قبائل ربيعة ومضر واليمن وتغلبت الجيوش الاسلامية. وفي شروط الصلح تعهد البجة بدفع الخراج وألا يمنعوا المسلمين من العمل في المعدن .

وسياسة المعتصم العباسي بتجنيد الاتراك وتفضيلهم على العرب كان لها صداها في مصر حيث منع واليه في مصر العطاء عنهم وثاروا وقبض الوالي على زعمائهم وأودعهم السجون ورأى الكثير منهم أن لا مكان لهم في بلاد أصبح حكامها من الأعاجم وساروا بقطعانهم وراء المرعى والحرية حيث طاب المقام لاخوانهم من قبل ، وتجمعت القبائل العربية في أرض المعدن وبعضهم

انساحوا جنوباً وغرباً إلى السودان الأوسط : وزاد تدفقهم جنوبا عندما قاد العمري حملة كبيرة عمادها قبائل عربية وتوغل حتى وصل منطقة أبو حمد وكما يحدث في الحملات السابقة يبقى بعض العرب لينضموا إلى غيرهم ممن سبقوهم . وعندما أهل العهد الفاطمي في مصر كانت حشود العرب في منطقة أسوان عظيمـــة وكان غيرهم يقيمون في بلاد النوبة على النيل وآخرون في بلاد البجة حيث امتزجوا بالسكان بالمصاهرة ربمـــا اعتنق بعض البجة الدين الإسلامي .

ويروي لنا ابن سليم الأسواني الذي بعثه جوهر الصقلي لملك النوبـة في دنقلا يطالبه بدفعما عليهمن بقط ان المسلمين هناك كانوا في حالة من الاستقرار والاستقلال وكانت لهم أملاكهم الخاصة وان الكثير من النوبيين اعتنقوا الدين الاسلامي وبعضهم توغل جنوباً في إقليم علوة للتجـــارة حتى أصبح لهم رباط خاص في سوبا عاصمة علوة . وشهد العهد الفاطمي قيام أول دولة عربيـــة اسلامية تحت أمرة كنز الدولة في النوبـة السفلى وانخرط كثير من النوبيين في جيش الدولة الفاطمية وهذا مما دعـا صلاح الدين الأيوبي لمناهضتهم وارسال الحملات لتأديبهم لأنهم على ما يبدو كانوا ينـاصرون الدولة الفاطمية وعملوا لاسترجاع نفوذها .

سياسة المماليك :

واتسم عهد المماليك بتضييق الخناق على الدولة المسيحية في السودان حيث تم سد المنافذ عليهم للعالم الخارجي في مينائي عيذاب وسواكن . وقد عرف ان بعضهم كانوا يحجون للأراضي المقدسة المسيحية في فلسطين وسرهم احتلال الصليبيين لها وساءهم اضطهاد اخوانهم في الدين الأقباط وطرد الصليبيين من فلسطين . وفي محاولاتهم الثورية ضد المماليك كانت الحملات توجه اليهم من مصر حتى تم للمماليك ما نستطيع ان نسميه حماية مملوكية على مملكة دنقلة حيث يتم تنصيب الملك بواسطة السلطان . وطوال عهد المماليك الى سنة ١٣٢٣ كان

الملك النوبي يثور وتسير الحملة لدنقلا ويهرب الملك أمامهم او يلاقونه وينهزم وينصّب ملك جديد من الأسرة المالكة وغالباً يكون لاجئاً في مصر وتغادر الحملة المملوكية ويظهر الملك المخلوع ويطرد او يقتل من نصّبه المماليك . ويأتي جيش المماليك ثانية وهكذا ، وأثناء ذلك يتوغل العرب في دنقلا ويجاوزونها الى السودان الأوسط وتتكاثر القبائل العربية في أرض البجة وتتصاهر معهم وتؤثر عليهم في العقيدة وينساحوا وراء مرعى أطيب ومياه أغزر بقطعانهم وابلهم وبعضهم يستقر على النيل ويستخدم طرق الزراعة التقليدية من النوبة ويتصاهرون ويؤثرون على العقيدة .

ويتربع كنز الدولة على عرش دنقلا في سنة ١٣٢٣ وهو من سلالة مؤسس دولة الكنوز وهو عربي من قبيلة ربيعة ولكن من جهة أمه يمت بصلة الرحم لملوك مقرة ولا تسعفنا المصادر بتطور الأحداث الى حين قيام دولة الفونج في أوائل القرن السادس عشر حيث وجدوا إمارات وزعامات صغيرة مستقلة وليس لها حكم مركزي موحد .

ويبدو ان النعرة القبلية العربية حلت مكان الملك الموحد المتوارث من مملكة النوبة وفي هذا دلالة واضحة على ان قيـــام ملك اسلامي على انقاض الدولة المسيحية وما سبقه من تغلب النفوذ الاسلامي العربي أثار زعماء العرب على الحكم المركزي وأسسوا لانفسهم إمارات مستقلة تبعاً للنظام القبلي العربي ومع ان النوبيين بمرور الزمن اندمجوا مع العرب واعتنقوا الدين الاسلامي ، الا أنهم في بعض المناطق احتفظوا بلغاتهم وتقاليدهم في إقليم دنقلا ومـا جاورها شمالاً من بلاد النوبة .

مملكة علوة :

أما مملكة علوة فهي أكثر اتساعاً من مملكة المقرة وأمطارها أغزر وهذا ما جعل العرب ينساحون فيها بعيداً من تعسف العناصر غير العربية التي توالت

على حكم مصر وكانت البلاد واسعة تسمح بمزيد من السكان وما كان أهل علوة يشعرون بضيق او مزاحمة من العرب الوافدين . والظاهر ان العرب تكاثروا بدرجة تفوقوا بهـا على سكان البلاد الأصليين حتى انمحت لغتهم واندمجوا في القبائل العربية وزال كيانهم . وعندما تغلب الفونج عليهم في أوائل القرن السادس عشر كانت عملية هذا الغزو السلمي العربي في إقليم علوة مرت عليهـا نحو ثمانية قرون . فلا غرابة إذا مـــا تعرب السودان وأسلم بعنصريه العربي والنوبي .

دولة الفونج :

وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي وفي فترة من الغموض وقـــلة المصادر ظهر عمارة دونقس وينتمي الى جمـــاعة تسمى الفونج وأسس دولة إسلامية عاصمتها سنار ولكن في بداية أمره كان يتنقل بين سنار وعاصمة أخرى يحتمل أن تكون بالقرب من الروصيرص ، وقد أكد لنا وجود عمارة ومملكته داود روبيني وهو يهودي شرقي قدم لبلاد السودان عن طريق سواكن سنة ١٥٢٣ ، والجدل لا يزال قائماً عن اصل الفونج ، ولكنهم يدعون النسب إلى بني امية ، وما تذكره المصادر العربية عن هروب بعض الامويين لبـــلاد البجة والنوبة من مصر عند انهيار دولة بني أمية وقيام الدولة العباسيـة يعدهم بدليل لهذا الادعاء ، والحقبة بين سقوط الدولة الاموية وتأسيس عمارة لدولة الفونج في السودان تمتد الى نحو ٧٥٠ سنة ويحتمل زواج هؤلاء الأمراء الأمويين من افريقيات في تلك المدة في ارتريا والحبشة واعالي النيل الأزرق ممـــا جعل ألوانهم وبعض تقاطيـع اجسامهم مماثلة لعناصر الأفريقية .

وقيام دولة الفونج الاسلامية في السودان عاصر نهاية عهد المماليك في مصر ودخول السلطان سليم العثماني واحتلالها وحدثت معارك بين قبيلة تحت نفوذ الفونج واخرى استنجدت بالأتراك في حدود دنقلا الشمالية مما اقام الحدود حيث ترك بلاد المحس تحت نفوذ الأتراك وما يليها جنوبا تحت نفوذ الفونج ،

والجزء الشمالي من دولة الفونج من اريجي جنوبا (بالقرب من الحصاحيصة) إلى الحدود الشمالية يقوم على حكمة العبدلاب نيابة عن ملوك الفونج وما بقي من اقاليم يقع تحت سيطرة الفونج المباشرة .

ولم تتضح الصورة عن نظام الحكم في اول امرهم ولكـــن من الروايات الوطنية في عهد دكين ودنايل (١٥٦٩ م) نستطيـع ان نتبين معالم هيكـل النظام الاداري فقد ظهرت مشيخات يتولى امر الحكم فيها زعماء قبليون يستمدون السلطة في اقليمهم براسيم وتقاليد موروثة عن النظم السابقة للدولة الاسلامية في السودان .

والظاهر ان السلطة المركزية للفونج في سنـــار وللعبدلاب في قرى اولا والحلفاية اخيراً لم تكن قوية في كل العهود ، وتصلنا روايات عن قيام حروب بين الفونج ووكلائهم العبدلاب وعن ثورات ضد الفونج والعبدلاب من مشيخات كان النظام يستدعي خضوعها لهما . واكبر مثال على هذه النزعة الاستقلالية هو استقلال الشايقية ، وهذه هي نفس الظاهرة التي ادت الى تفكـــك دولة المقرة عندما تغلبت القبائل العربية واصبحت الرابطة القبليـــة تطغي على الرابطة القومية .

ولو انه كان واضحاً حتى في اخريات عهد الملكات المسيحية تكاثر العرب واعتناق النوبيين للاسلام إلا ان تأسيس دولة إسلامية في قلب افريقيا زاملته نهضة إسلامية غذاها الكثير من رواد المسلمين من الأقطار الاسلامية الأخرى . فالاعراب وخاصة في بدواتهم وانسياحهم وراء المرعى والماء لأغنامهم وإبلهم كانت معرفتهم بأمور دينهم سطحية وهم في حاجة إلى من يرشدهم ويدلهم إلى الطريق القويم . وكان السفر الى السودان مشقة لا يقوى على تحملها إلا الذين كان لهم نصيب وافر في التصوف والتقشف فهؤلاء وفدوا البلاد عندمـا ترامى الى اسماعهم خبر تأسيس الدولة الاسلامية ودرّسوا وارشدوا وحمل تلاميذهم الرسالة من بعدهم ورحل بعض المتفقهين من السودانيين الى الاقطار

الاسلامية للتزود من العلوم الدينية وخاصة الأزهر .

وكتاب الطبقات لمؤلفه ود ضيف الله دوّن اخبار اكثر من مائتين لهؤلاء العلماء الصالحين والأولياء . فتاج الدين البهارى وإبراهيم البولادي وإدريس والأرباب وحسن وحسونة والزين صغيرون وكثير غيرهم ساهموا في تلك النهضة الدينية : فمنهم من كانت حلقته تصل الى الألف ومنهم من ألف بعض الكتب او شرح امهات الكتب الدينية ومنهم من افتى في كثير من المسائل الدينية . وكانوا موضع التجلة والاكرام من الملوك حيث اغدقوا عليهم المنح واقطعوهم الاراضي واعفى من التجأ بهم من غضب السلطان وبعض الملوك امتد إكرامهم الى علماء الأزهر المشهورين حيث ارسلت لهم الهدايا وبعضهم مدح الملوك بقصائد وقد دونت الروايات الوطنية قصائد الشيخ عمر المغربي في مدح بادي أبو دقن نجتزىء منها الأبيات التالية :

أيا ناهضا من مصر وشاطىء نيلها وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير ان وافيت سنار قف بها وقوف محب وانتهز فرصة الدهر
إلى حضرة السلطان والملك الذي حمى بيضة الإسلام بالبيض والسمر

ملاحظات الأجانب :

وفي السنين الاخيرة من القرن السابع عشر والأولى من القرن الثامن عشر كانت سنار طريقاً للمبشرين الكاثوليك تحت إشراف قنصل فرنسا العام في القاهرة للحبشة وسفراء ومبعوثين لأغراض سياسية . وكان هدف الكنيسة الكاثوليكية هو تحويل الكنيسة الحبشية من اليعاقبة الى الكاثوليك واشتد نشاطهم في هذه الناحية الى درجة ان البطريركية القبطية لفتت أنظار إمبراطور الحبشة وملك سنار .

والمشروع الفرنسي السياسي الذي كان ينوي دي ميليت قنصل فرنسا العام تنفيذه هو وضع الحبشة تحت الحماية الفرنسية ومعاونتها حربيا ضد سنار

وضد موانيءالأتراك في مصوع وسواكن . وهو مشروع استعماري جاء مبكراً في ذلك الوقت ولكن بمقتل دي رول سفير فرنسا لدى الحبشة لتنفيذ المشروع في سنار انهارت مطامع دي مليت كممثل لحكومته . والمذكرات التي دونها هؤلاء عند مرورهم بالسودان كانت مصادر رئيسية للحالة في السودان آنذاك .

وصفت هذه المذكرات مواكب السلطان وسوق سنار وما يعرض فيه من حاصلات محلية وبضائع مستوردة وبعض التقاليد المتبعة في مجلس الملك في سنار ومانجل (رتبة أقل من الملك) العبدلاب وخاصة عندما يزور المانجل سنار حيث يتلقاه الملك بموكب ضخم خارج المدينة وعند الالتقاء يترجل المانجل ويقبل رجل الملك بعدها يأمره بالنهوض ومن هذه العادة وبعض العادات والتقاليد الاخرى يتضح لنا ان العرب تأقلموا وأخذوا بعادات وتقاليد غير عربية وموروثة من النظم والتقاليد التي سبقتهم في ممالك السودان السابقة .

غزوة الاحباش :

وفي عهد بادي أبو شلوخ (١٧٢٤ م) غزا إمبراطور الحبشة إقليم سنار على رأس جيش كبير في سنة ١٧٤٤ حتى كانت فرقة منه قبالة سنار شرقي النيل الازرق وساد الهرج والمرج في المدينة وكاد الملك يأمر باخلائها لولا ان تدخل خميس أمير من دارفور ملتجيء بسنار وأبدى فكرة نجت بها سنار من محنتها . وهي أنه قطع النيل الازرق بفرقة من جيش سنار الى الشرق وحصر جيش الأحباش في مثلث يقع بين النيل الازرق والدندر وتمكن من هزيمته ولم يستطع الامبراطور من نجدته بالفريق الآخر من الجيش الحبشي شرقي الدندر. فتقهقر الأحباش فارين الى بلادهم ومنذ ذلك الحين لم تتعرض بلاد السودان لغزو حبشي بمثل هذه الخطورة .

أبولكيلك في كردفان :

وفي عهد هذا الملك غزا جيشه إقليم كردفان وكانت تحكمه قبيلة المسبعات تحت سيادة ملوك الفور في دارفور وبعد هزيمتين جمع الشيخ محمد أبولكيلك فلول جيش سنار وتمكن به من هزيمة حكام كردفان وضمها لاملاك سنار . غير أن هذه الانتصارات في عهده ضد الحبشة أولاً وكردفان ثانياً كانت خاتمة عهده بل خاتمة عهد السيطرة الفعلية للفونج . فقد شكا الكثير من تصرفات الملك وارتكب المظالم ووصلت هذه الانباء لكبراء الفونج المرافقين لحملة كردفان واتفقوا مع الشيخ محمد أبو لكيلك على خلع الملك وقد قوى جيشه بما وجده من رجال وخيل في كردفان ورجع الى سنار . وعندما وصل النيل الابيض بالقرب من الكوة حضر له ناصر ابن الملك واتفق الجميع على خلع بادي وتوليه ابنه مكانه وخضع بادي للأمر الواقع وتولى ابنه مكانه وأصبح الملوك بعد ذلك مجردين من السلطة وزمام الأمر بيد الشيخ محمد أبو لكيلك وبعده في أبنائه وأبناء اخوانه من قبيلة الهمج .وحتى هؤلاء نشبت بينهم الخلافات والمنافسة على السلطة وما بقي من عهد مملكة سنار حروب داخلية الى ان دخلت جيوش اسماعيل بن محمد على السودان ووجدته مفككاً لا رابطة بين قبائله .

الاثر الديني :

واذا كان لنا ان نختار ركائز بني عليها المجتمع السوداني في عهد الفونج فهي اثنتان .الزعامات الدينية من الناحية الصوفية والرابطة القبلية . وهاتان لا زالتا من أهم دعائم المجتمع السوداني الحديث رغم تطور الزمن . وخير وسيلة لتوضيح النفوذ الديني واثره على المجتمع السوداني آنذاك هي ان اورد فقرات بنصها من كتاب « ود ضيف الله » الذي سرد اخبار الاولياء والصالحين والعلماء في عهد الفونج ، فمن تاج الدين البهاري يقول « هو الشيخ الامام القطب الرباني والغوث الصمداني خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني مولده ببغداد وحج إلى بيت الله الحرام وقدم إلى بلاد السودان بإذن من رسول الله صلى

الله عليه وسلم والشيخ عبد القادر الجيلاني . وقدم مع داوود بن عبد الجليل ابو الحاج سعيد جد ناس العيدي وقدومه اول النصف الثاني من القرن العاشر اول ملك الشيخ عجيب ...: وسكن مع داوود في ضهرت وادي شعير بجهة ام عظام وموضع خلوته إلى الآن باقي ... وسلك خمس رجال منهم الشيخ محمد الهميم والشيخ بانقا الضرير وحجازي باني اريجي ومسجدها وشاع الدين ولد التويم جد الشكرية والشيخ عجيب الكبير » .

وعن المسلمي يقول « وكان ممن جمع بين العلم والعمل تفقه على الشيخ عبد الرحمن بن جابر واذن له في التدريس وارشد الخلق ومسكنه البحر الأبيض وهو احد تلامذة ابن جابر الاربعين الذين بلغوا درجة القطبانية في العلم والدين والصلاح منهم المسلمي هذا والشيخ يعقوب ابن الشيخ بانقا والشيخ عبدالله العركي والشيخ عبد الرحمن النويري والحاج لقاني » وعن ارباب ابن علي بن عون يقول « وسمي الخشن لخشونة جسمه من الوضوء والغسل وسمي ارباب العقائد واخذ علم الفقه من الشيخ علي ولد بري خدمه ودعا له على قريحة صادقة فنفعه الله بعلمه وشدت اليه الرحال في علم التوحيد والتصوف وبلغ عدد طلبته ألف طالب ونيف من دار الفونج الى دار برنو تلامذته وتلامذة تلامذته وألف كتاباً في اركان الايمان وسماه الجواهر . وانتفعت به الناس شرقاً وغرباً وتلامذته هم شيوخ الاسلام منهم الحاج خوجلي والفكي حمد بن مريم والفكي حمد حتيك والفكي هرون ولد ابو حصى والشيخ فرح ولد تكتوك والقرشي السلياني» .

وعن المضوي يقول « وشرع في تدريس الرسالة والنحو وعلم الكلام والأصول والمنطق وعمرت الحلقة بشندي واجتمع عليه خلق كثيرون ... وألف كتباً شأنها يكتبوها بماء الذهب منها أربعة شراح على ام البراهين العمدة التي عم النفع بها سائر الاقطار » وروى انه سافر لسنار لزيارة الخطيب عمار للاطلاع على مكتبته العامرة ودخل على الملك اونسه بن ناصر ففرق

الديوان لاجله « وقام اليه وعانقه وعابثه » واغدق عليه المنح والعطايا . وعن الشيخ الزين صغيرون يقول « وبلغت حلقته ألف طالب وتلامذته صاروا شيوخ الاسلام وممن تفقه عليه من الاجلاء الشيخ بدوي ولد ابو دليق والشيخ خوجلي ابو الجاز والفكي ابو زيد بن الشيخ عبد القادر وجدنا الفكي ضيف الله الفضلي والفكي أبو بكر ولد نوير في جبل مويه » .

هذه نماذج لما ورد في الطبقات عن العلماء ومجالسهم وعن إدخال الطرق الصوفية وخاصة طريق الشيخ عبد القادر الجيلاني وهناك العديد من كرامات الأولياء والصالحين . وكانت الجماهير يجذبها الاولياء أصحاب الكرامات وخوارق العادات ومن يدخلون الخلوات ويتعبدون ويتقشفون اكثر من العلماء المتضلعين في العلوم الدينية ولو انهم يطلبون ارشادهم والرد على فتاويهم.والولى الصالح تستمر طريقته من بعده يتعهدها خليفتهوهذا يسلمها لمن بعده وهكذا، وهذا يفسر لنا أن هناك من الأولياء الصالحين من فارق الحياة اكثر من ثلثمائة سنة مضت ولا يزال له انصار ومريدون يتقبل ولاءهم ويرشدهم خليفته وتعقد حلقات الذكر في ضريحه الذي يصبح مزاراً لهم . وهناك من الطرق والروابط الدينية لها انصار ومريدون منبثون في كل أنحاء السودان .

القبيلة وطن صغير :

والقبيلة كانت الوطن الصغير . وكل سوداني لا بد ان ينتمي لقبيلة لها دارها ومهما سافر واغترب في أقليم آخر فهو ينتمي لقبيلته ولا ينتسب للأقليم الذي هاجر اليه وتكونت مستعمرات في أقاليم السودان الأوسط من مجموعات نزحت من قبائل السودان الشمالي حيث مجال العيش محدود واستمرت في انتسابها لقبائلها الأصلية التي تفرعت ولو ان ديارهم الأصلية بعدت ونأت عنهم وفي هذا دلالة واضحة على تغلغل النعرة القبلية في نفوسهم . ولكل قبيلة أيامها التي ينقل أخبارها الكبار للصغار وهي تاريخهم ومفاخرهم وأمجادهم ،

فالأمن وحماية العرض والمـال تتوقفان على قوة القبيلة وكل قبيلة تود الكثرة لتكون في منعة وقوة .

لا طبقات اجتماعية :

وما كان ليشعر الرحالة وهو يمر بديار السودان بطبقات اجتماعية وليس هناك تفاوت كبير بين حياة الأثرياء وبقية أفراد الشعب . وقد ذكر وادنجتون وهو يمر بأقليم دنقلا ان الملك يرتدي قميصاً واحـداً وهو يرافقهم في رحلتهم فاذا مـــا غسل هذا القميص الواحد مكث الملك داخل الحجرة حتى يجف ويرتديه مرة أخرى وقد يكون في هذا القول مبالغة ولكنه يؤيد مـا نقول به من مساواة اجتماعية آنذاك ولم يلاحظ بركهاردت في ملك رأس الوادي (دارمالي) أبهة الملك أو عظمة السلطان .

ولقد استطاع السودانيون سواء منهم العربي الخالص أو الهجين ان يلائموا ما بين حياتهم والمحيط الطبيعي . فلبسهم أبيض خفيف وعماده الثوب الذي يقي من يلبسه لفحة الحار بالنهار وزمهرير البرد بالليل وهو من القطن الذي تعودوا زراعته في أراضيهم وغزله ونسجه من صنع ايديهم وبيوت الطين في المناطق التي تقل فيها الأمطـــار او تنعدم والقطاطي مبنية من القش والقصب في المناطق ذات الامطار الغزيرة . ومأ كلهم الشعبي الذي يتكون من عصيدة الذرة أو الدخن وأدامه اللحم المطحون أو المرق المخلوط بالويكة أو اللبن يعطي أجسامهم طـــاقة حرارية غير مسرفة في طقس حرارته مرتفعة بطبيعتها . وما من مرطب يحتاجه المسافر بعد مرحلة طويلة شاقة أنسب من مشروب الآبري المصنوع من الذرة ، والجسم الذي يتعرض لحرارة الشمس طول النهار تنعم بشرته ويطرى جلده بالدلكة وزيت السمسم وقد أطراها بركهاردت أيما أطراء وهو في رحلته لشندي . حياة اجتماعية كهذه من شأنهـا ألا تقود الى طبقتين اجتماعيتين إحدهما في منزلة السيد والأخرى في منزلة الخادم المسود .

وبما دعم نظرية إنعدام الطبقات وجود الرقيق بكثرة وسهولة الحصول

عليه ليؤدي الذكور منه الخدمات الشاقة في الزراعة والرعي والسقي وليؤدي الاناث منه خدمات المنزل من طحن وعوس واحتطاب .

وإذا كان عز الرجل في عزقبيلته ومجموعته الصغيرة وإذا كانت مطالب العيش بسيطة وغير معقدة فهو ليس بحاجة ان يفارق دياره وموطن أحبابه وأصفيائه . وهو ان فعل ذلك عاملته القبائل التي يكون نزيلا بها معاملة الهمل الذي لا أصل له . وقد تمتنع عن مصاهرته اذا جهلت أصله أو علمت أنه ينحدر من أصل وضيع لا يرتفع الى مكانتهم ونتيجة لذلك لم يعرف في تاريخ هـذه الحقبة هجرة الى خارج السودان إلا في طلب العلم والتجارة وحتى في داخل السودان شاهدنا بطون قبائل تهاجر من اقليم الى أقليم آخر داخل السودان ولكن الهجرة الفردية نادرة الوقوع .

التجارة الخارجية :

لقد عرف السودان الأتجار مع الخارج منذ الأزمان الغابرة والواقع ان أولى العلاقـات بين مصر والسودان بدأت بالتجارة وتبادل السلع منذ أقدم عصور الفراعنة .

فهناك طرق شهيرة تتخذها القوافل في مجموعات كبيرة بغرض الحماية من قطاع الطرق وتحكم الملوك الصغار والمشايخ ، فهناك طريق بربر إلى دراو أو كرسكو ، وهناك طريق الأربعين من درافور الى أسيوط وطريق ثالث يبدأ من دنقلا إلى الواحات ثم يتصل بطريق الأربعين . أما منفذ السودان الوحيد للبحر في ميناء سواكن فيتصل بالنيل عند بربر أو شندي . وكل هذه الطرق تصل إلى بقية أنحاء السودان والجمل سفينة الصحراء هو وسيلة الترحيل .

يحمل هؤلاء التجار الى السودان كميات من العطور والروائح الهنديـة والصابون والمنسوجات وأنواعاً مختلفة من البهارات والعدد الحديدية ويرجعون بالرقيق والصمغ وسن الفيل مما عرف السودان بانتاجه . ويقدر ما كان يصدر

سنويا من الرقيق لمصر عن طريق قافلة سنار بألف وخمسمائة وعن طريق سواكن بألفين ومائتين . ولكن ما يباع ويستخدم في داخل البلاد يفوق هذا العدد . ويرى بركهارت أن الرقيق كان يعامل بوجه عام معاملة حسنة وبعض المولدين الذي يتصفون بشيء من الذكاء والاخلاص ينزلهم سادتهم منزلة الولد. وكان الملك أو زعيم القبيلة يعتمد في حروبه زيادة على أولاده وبني عمه على عبيده الخواص وهم يبذلون أنفسهم في سبيل سيدهم الذي يعتزون ويفاخرون به .

سمات المجتمع :

فالمجموعة السودانية إبان فتح محمد علي في سنة ١٨٢١ تتكون في مملكة سنار من دويلات صغيرة عمادها القبيلة الواحدة ويصل المواطن إلى مقام الزعامة والشهرة بقليل من الوراثة ولكن في الأغلب بقدرته في قيادة القوم في الحروب وبكرمه وعطفه على أفراد القبيلة زمن السلم وينال تقديرهم وإعجابهم دون أن يشمخ بأنفه عليهم ودون ان يتخذ لنفسه مظهراً يختلف كثيراً عن بقيتهم . والحكومة أياً كان نوعها قليلة النفقات قليلة الضرائب . والمجتمع ديموقراطي دون ما طبقات بل تغلب عليه المساواة . وعقيدته الاسلامية تميل نحو التصوف وزعماء الدين الحائزين لدرجة عظيمة من الاجلال والاحترام هم من يأتون بالكرامات مع قليل من العلم .

دارفور :

ودارفور قامت فيها مملكة في نفس الوقت تقريباً الذى نشأت فيه دولة سنار وتعاقب عليها سلسلة من السلاطين ظلوا يحكمونها على أساس إسلامي إلى حين سقوطها على يد الزبير باشا في عهد الخديوي إسماعيل ويسكنها كثير من القبائل العربية الذين يسمون بالبقارة لارتباطهم بقطعان البقر . وظلت كردفان الشمالية متنازعاً عليها بين دولتي سنار ودارفور ولكنها في معظم

الحالات كانت تحت سيادة دارفور يدين حكامها بالولاء والطاعة لسلاطينها . وجبال النوبة في جنوب كردفان يعتصم بجبالها قبائل إفريقية يشملهـــا اسم النوبة وهم غير بلاد النوبة التي عرفناها في الشمال . أما في الوديان والسهول فقد انتشرت قبائل عربية من البقارة . والمديريات الجنوبية من السودان لها تاريخها المنفصل واتجاهها الأفريقي وصلاتها بالقبائل التي تماثلها عبر الحدود نحو خط الاستواء ولم تمتد اليها العروبة والاسلام اللهم إلا في الأطراف في هذا الوقت الذي نؤرخ له .

وبجمل القول أنه في الوقت الذي انحسر فيه ظل الاسلام والعروبـــة في الأندلس كانت القبائل العربية تنساح في مجاهل افريقيا ووادي النيـــل حتى وصلت درجة من الكثرة العددية والنفوذ والسيطرة مما أدى الى تأسيس دول إسلامية لها طابعها العربي في اللغة والثقافة وفي الوقت نفســه ورثت من الأرض الكثير من العادات والتقاليد وسبل كسب العيش نتيجة التأثر بالاقليم والامتزاج مع السكان الأصليين وهذه الحقبة من تاريخ السودان هي التي كونت المجتمع السوداني الحديث بوجهيه العربي الاســـلامي والأفريقي . وحوادث التاريخ التي جرت في السودان إلى وقتنـــا الحاضر لم تغير كثيراً في أسس ذلك المجتمع الذي قام بعد دخول الاسلام والعروبة في السودان وفي عهـــد مملكة سنار بالذات .

الفصل الثاني

العهد التركي المصري

في مفتتح القرن التاسع عشر وصل محمد على الى ولاية مصر بأن شق طريقه الخاص وسط حالة الاضطراب التي أعقبت انسحاب جنود نابليون من مصر وحقبة التنافس على النفوذ والسيطرة بين المماليك يؤيدهم الانجليز وبين السلطنة العثمانية التي أرادت استرجاع نفوذهـا الفعلي على مصر . والجيش العثماني الذي وصل مصر لا يخلو من منازعات داخلية وخاصة الفرق الألبانية والتي قادهـا محمد علي في آخر الأمر . واعتمدت سياسة محمد علي على مبدأ المحالفة مع فريق ضد الفريق الآخر لتحطيمه ثم التنكر للفريق الذي حـالفه في أول الأمر . واتخذ سياسة جديدة لم يفطن لها من كانوا طامعين في السلطة وهي التقرب الى زعماء المصريين والذين تكونت نواتهم من ديوان نابليون ووصل عن طريقهم في آخر الأمر الى تقلد زمام السلطة وإعلانهم له والياً وبعدها تردد السلطان العثماني وصل التصديق .

وجرت محاولات عدة من الباب العـالي لاقصائه عن ولاية مصر حتى لا تتركز أقدامه ولكنهـا باءت بالفشل لأنه ارتكز على تأييد الشعب ممثلاً في زعمائهم وقضية تنكره لهؤلاء الزعماء وخاصة للسيد عمر مكرم عندما رسخت أقدامه فصل هام من تاريخ مصر الحديث . وأثناء المحاولات لنقله واقصائـه

عرف ان وسيلته الفعالة الوحيدة في تثبيت دعائم حكمه لمصر حتى لا يكون والياً عادياً قابلاً للعزل او النقل هو جيش نظامي بتدريب حديث يدين بالولاء والطاعة له شخصياً لا جيشاً تركيـــا او مرتزقة لا يخضع للنظام والتدريب . وتجاربه في مصر نفسها وفي حروبه ضد الوهابيين بأمر من السلطان تبينت له هذه الضرورة ، ولأمر مــا لم يشأ التجنيد من المصريين في أول الأمر ولكن اتجهت أنظاره نحو مستودع الرجال الأقوياء من عرفوا بالشجاعة والطاعـــة والاخلاص وهم السودانيون السود ورأى الكثير منهم مما يجلبه تجار الرقيق في أسواق مصر وفي الحجاز بعد ذلك . وسمع بطريقة مبالغ فيهـا ان مناجم الذهب في بني شنقول ستدر عليه مالاً وفيراً يصرفه في مستلزمات هذا الجيش زيادة عن خيرات البلاد الأخرى .

وصمم بعد الدراسة وجمع المعلومات ان يوجه حملتين من مرتزقته إحداهما نحو مملكة سنار والأخرى نحو كردفان ودارفور وعقدلواء الأولى لأبنه الشاب إسماعيل والثانية لصهره محمد بك الدفتردار . وكانت دولة الفونج في أخريات أيامهـــا مفككة الأوصال حيث يجلس على العرش في مدينة سنار ملك من سلالة الفونج لا حول له ولا قوة . ويستبد بالأمر وزراء من الهمج . وحتى أولئك لهم منازعاتهم الداخلية وانحسر ظل نفوذ وسيطرة سنار والعبدلاب على المشيخات والأمارات التى كانت خاضعة لهم والشايقية أكثر هذه القبائل قوة ومنعة مارستاستقلالها منذ عهد يفوق المائة سنة وغيرها تمتعت بدرجات من الاستقلال متفاوتة ، وفوق ذلك لم تكن هنــاك قومية عامة تربط الجميع وتجعلهم يتكتلون ضد أي غزو أجنبي .

محمد علي يغزو السودان :

سار اسماعيل في جيش خليط من الأتراك والألبـــان والمغاربة وبدو الصحراء كجنود مرتزقة يتقاضون أجوراً شهرية. ولم يتلقوا تدريباً حديثـاً

ولكنهم مع ذلك يملكون الأسلحة النارية التي يفقدهـا السودانيون . ورافق الجيش مشائخ من بدو مصر وممثلين للمذاهب الاسلامية الأربعة لبث الدعاية في صفوف السودانيين كعرب وكمسلمين . ولم يجد اسماعيل من يقـاومه وهو يزحف في دنقلة حتى وصل أقليم الشابقية وفرت المماليك التي كانت تقيم بدنقلة هاربة من سيف محمد علي خاصة بعد مذبحة القلعة . ودارت مفاوضات بـــين إسماعيل وزعمـــاء الشابقية على تسليم أسلحتهم وخيولهم ولكنهم رضوا بالولاء والطاعة مع احتفاظهم بأسلحتهم وخيلهم . ولم يرض إسماعيل ودارت رحى معارك حامية بذل الشابقية فيها أرواحهم غير أن الاسلحة الناريـــة تغلبت عليهم وسلّم بعضهم وهرب غيرهم جنوبا الى شندي . ومن المكاتبات التي دارت بين الابن والوالد آنذاك يتبين لنا ان محمد علي لم يرض عن اسماعيل في رفضه شروط الشابقية حتى يتفادى ما سفك من دماء ولكن إسماعيـــل من وجهة النظر العسكرية لا يرضى ان يبقى وراءه قوة الشابقية سليمة وهـــو يتوغل جنوبا نحو سنار .

ولم يجد إسماعيل اية مقاومة وصار يتلقى التسليم والولاء من الزعماء حتى وصل شندي وسلم له الملك نمر والملك المساعد زعيما الجعليين بعد ضغـــط ولذلك لم يأنس اليهما ولم يمنحهما سيوفا كما فعل مع غيرهمـــا كدليل للثقة والاطمئنان .

وفي شندي تصالح مع الشابقية الذين هربوا بعد المعـــارك وانخرطوا في جنديته كباشبوزق (جند غير نظامي) لأن الجندية أصبحت مهنتهم وظلوا في موالاتهم للعهد التركي — المصري الى قيام الثورة المهدية . وصار محمد علي يحث ابنه للأسراع في التقدم حتى يصل إلى هدفه وهي سنار عاصمـــة الدولة .

وشعر محمد عدلان وهو الوزير الأول بالخطر وقام بمحاولات لوحدة الصف ولكن خصومه لحزازات شخصية داخلية قتلوه وبذلك سهل على إسماعيـــل

دخول سنار دون مقاومة وبعد أن خرج له بادي آخر سلسلة ملوك الفونج وقدم له فروض الولاء والطاعة . وبذلك تم لاسماعيل الاستيلاء على كل الأقاليم التي كانت تحت نفوذ دولة سنار وختم الشيخ أحمد كاتب الشونة في تاريخه لدولة سنار سرد قصتها بما يلي : « فهذا ما جرى من سيرتهم وانتهاء ملكهم في العام المذكور فرحم الله الأموات منهم وعظم الأجور فقد كانوا لأهل الخير قادة ولبيوت الفضل سادة فكم آووا غريباً وكم رحموا مسكيناً فجعلوه قريباً وقال في حقهم من نعامهم لما رأى داعي المنون ناداهم وتجرع الصبر عند فقدهم وبلواهم وأرثاهم بهذه الأبيات :

أرى لدهري إقبالاً وإدبارا فكل حين يرى للمرء إخبارا
يوما يريه من الافراح أكملها يوما يريه من الأحزان اكدارا
وكل شيء اذا ما تم غاياته ابصرت نقصا به في الحال اجهارا

حملة كردفان :

أما الدفتر دارقائد حملة كردفان فقدتقدم جنوبا بعد ما فارق اسماعيل دنقلا ولم يتردد المقدوم مسلم حاكم كردفان آنذاك من مقاومة هذا الغزو وقد أوضح ذلك في خطاب بعث به رداً على خطاب من الدفتر دار يطلب منه فيه التسليم هذا هو نصه لما فيه من أسلوب طريف عامي « أما بعد فخطابك الذي أرسلته إلينا فهمناه . وما فيه من جهة السيال (الصيال = الاعتداء) والطما (الطمع) وغير ذلك فهمناه طيب ان كان نحن في بلدنا مسلمين وتابعين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالامر والنهي في زمان السلاطين المتقدمين . أنتم أهل بحر ونحن أهل بر وكل سلطان يحكم أهل بلده بما قال الله ولا نحن تحت ملككم من زمان السابق . كل سلطان يحكم رعيته بما قال الله وهو المسئول . أما انتم فغير مسؤولين عن حكم ديار الغير « ومنه » ولا ظهر في زمن السلاطين المتقدمين من العثماني من خاطبنا بهذا الخطاب ولا من يرسل

التجريدة على بلاد الاسلام إلا أنتم في زمن محمد علي باشا غزيتم ديار المسلمين ». وعندما التقى الجيشان في بارة شمال الابيض تغلبت الاسلحة النارية وانضمت كردفان إلى أملاك محمد علي مثلما انضمت سنار قبلها .

الغزوات لاصطياد السود :

ورأى محمد علي ان يبعث بابنه ابراهيم لمعاونة اسماعيل ولوضع خطـــة بينهما لتنفيذ أهداف الحملة وأهمها مسألة جلب السود الصالحين للجندية وتفاوض الاخوان في الامر واتفقا على ان يسير اسماعيل بحملة إلى أعالي النيل الازرق وابراهيم إلى بلاد الدينكة . ولم يصل إبراهيم الى هدفه لان علة الباســـور اشتدت عليه وهو في وسط الجزيرة قبل ان يصل النيل الابيض وقفل راجعاً لسنار ومنها لمصر وفشلت هذه الحملة . اما اسماعيل فلم يتمكن إلا من جلب عدد قليل نسبياً لا يتعدى ٥٠٠ اسود صالح للجندية .

وإذا كان الباحثون يجدون صعوبة أو غموضاً في أهداف مثل هذا الغزو فإن محمد علي وضّح هدفه الرئيسي بمـــا لا يدع مجالاً للشك ، ففي خطاب لابراهيم باشا يقول « وجلب السودانيين هو غاية المراد ونتيجة المقصود مهما كانت الصورة التي يجلبون بها من مواطنهم » . وفي خطاب آخر لاسماعيل يقول « وان المقصود الأصلي من هذه التكلفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا اليكم ذلك مرة بعد أخرى بل الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا » . واهتم محمد علي بطريقة ترحيلهم لمصر وعندما رأى ان طريق الصحراء لا يصلح أوصى بعمل مراكب لهم وأقام المعسكرات في إسنا وأسوان وعين مماليكه الشبان ضباطاً لتدريبهم وعين لهم الأئمة لإرشادهم في الدين الاسلامي وأصدر التعليمات باحتكار تجارة الرقيق للحكومة وبدأ مكاتبات مع سلطان دارفور عارضاً الاتفاق على جلب الرقيق من ذلك الأقليم والسماح للحكام بقبول الرقيق الصالح للجندية

بديلاً عن الضرائب .

الضرائب :

وكشأن أي جهاز حكومي تركي يرمي الى استنزاف دمـــاء الرعايا من الضرائب الفادحة فقد أحصيت القرى ووضعت ضرائب على رؤوس الماشية والابل والأغنام والخيل والحمير بطريقة لم يألفها السكان وبمبـالغ نقدية تفوق أحياناً أثمانها . فلا غرابة إذا بدأت بوادر الثورة في منطقة سنار ومهـــاجمة الحاميات المنعزلة وهروب الأهالي الى الشرق مبتعدين عن سلطة الحكومة وبعضهم التجأ الى الحبشة . وحدث كل هذا عندما كان اسماعيل في غزواته من أجل السود الصالحين للجندية في الجبال الجنوبية لمنطقة سنار . وعندما رجع وواجهته هذه الحالة الحرجة خفف أعباءها ولكن هذا الاستهلال للعهد التركي كان من أهم العوامل لكراهية العهد . ولعدم ملاءمة مناخ سنار نقل اسماعيل العاصمة الى واد مدني وبنى بها ثكنات ولكنه لم يقم طويلاً فيهـا حيث عقد العزم للنزول لمصر لاخذ قسط من الراحة بعد ان اطمأن الاحوال ولتقـام له الزينات في القاهرة ويدخلها كبطل ضم الى أملاك والده قطراً شاسعاً لـــه امكانيات ضخمة لتقوية جهازه الحربي بالرجال والمال .

مقتل اسماعيل :

ووصل الى شندي في طريقه للقاهرة واجتمع بزعيمي الجعليين نمر ومساعد وطلب منهما مطالب من المال والرقيق ما يعجز مواردهما المحدودة عن إيفائها ورد نمر بأن بلاده لا تملك هذه الامكانيات وكان إسماعيل الشاب المغتر يدخن من غليون طويل فغضب من هذا الرد وضرب الملك نمر في وجهه بالغليون وشعب الجعليين يراقب الاجتماع ويرى ما يحدث فيه . ولو كان اسماعيل يعرف قبيلة الجعليين واعتزازهـا بنفسها وعراقة أصلها بتحدرها من العباس بن عبد المطلب لادرك أن في مسلكه هذا لمعاملة زعيم تلك القبيلة ما سوف يكون

له رد فعل سريع لرد هذه الاهانة . وقد هم نمر حسب الروايات بالانتقام لتوه وساعته ولكن المساعد أومـــأ اليه بالتريث . ودبرت المؤامرة لتنفذ بالليل حيث أحضرت حزم قصب الذرة الجاف بكميـــات كبيرة حول المعسكر بدعوى أنها علف لخيل وجمال الضيوف وأسكر الجند وفي بهيم الليل أشعلت النيران وقضت على اسماعيل وجنده .

حملات الدفتردار :

ورد محوبك هجومـــاً من الجعليين على بربر وحضر الدفتردار بجيشه من الأبيض وبدأ في غزوته الانتقامية منذوصوله للنيل الابيض وتقدم شمالاًللمتمة يقتل ويفر الاهالي أمامه وخرب المتمة وتقابل الدفتردار مع محو بك في الدامر والتجأ الجعليون الى البطانة ورجع الدفتردار بشرق النيل يقتل ويخرّب حتى وصل وادمدني ومنهـا قفل راجعاً للأبيض وانتهت المرحلة الاولى من حملته الانتقامية .

وقام مرة أخرى لملاقــاة الجعليين في البطانة حيث انتصر على نمر وأسر الآلاف منهم والتجأ الملك نمر ومعه نفر قليل من عائلته الى الحبشة . وتراجع المساعد جنوباً الى ان وصل الى نهر الدندر وتعقبه الدفتردار هنـاك وهزمه والتجأ الى الحبشة أيضاً . وسيّر الدفتردار آلاف الاسرى الى مصر بمـا فيهم نساء وأطفال بعد ان ضمهم الى أسرى الملك نمر وهناك بدأوا يعرضونهم للبيع في سوق الرقيق لولا ان تدخل قناصل الدول الأوروبية لمنع محمد علي من هذا المسلك . والدفتردار نزل مصر بعد ختـــام المرحلة الثانية الانتقامية وعين مأموراً لأقليم سنار عثمان بك وحضر بجنود الجهادية التي تدربت على النظــام الجديد . وأعجبه موقع الخرطوم عند التقاء النيلين قبل موسم الأمطار . ولو حضر أثناء موسم الأمطار وفيضان النيل لوجد الموقع سيئاً من حيث الترع والمستنقعات وقرر ان يكون مركز الحكومة في الخرطوم بدلاً من وادمدني.

وكان فظاً غليظ القلب وأتى بعد مقتل اسماعيل وشهوة الانتقام لا تزال قائمة وتعاونت الطبيعة معه للتنكيل بالسكان من قحط وأوبئة ومات قبل ان تمض عليه ثمانية أشهر بالسل ودفن في مقر حكومته الجديدة . وتابع خلفه محوبك سياسة لين ومسالمة أزالت بعض ما علق بنفوس الاهلين نتيجة ضرائب اسماعيل وحملات الدفتردار الانتقامية وقسوة عثمان بك وختم تلك المرحلة من عهد محمد علي في السودان ممهداً لخلفه للسير في سياسة العمران والاستقرار والثقة في الحكومة .

خورشيد باشا :

عين خورشيد أغا في يناير ١٨٢٦ حاكما لاقليم سنار وكان عليه ان يمحو الآثار السيئة التي تركتها حملات الدفتردار وسياسة عثمان بك واطمأن من فر الى التخوم الحبشية الى سياسته الجديدة ورجعوا لاوطانهم وساعده في هذه المهمة بعض كبار السودانيين أمثال الشيخ أحمد الريح والشيخ عبد القادر ود الزين . والخرطوم العاصمة الجديدة التي كان منشئها الحقيقي خورشيد أغا حيث شيد المسجد الجامع ومباني الحكومة وثكنات الجيش وفرّق الاخشاب على الأهلين تشجيعاً لهم على عمرانها . وبدأ محمد علي لتنفيذ سياسة استغلال امكانيات البلاد الاقتصادية بادخال الطرق الحديثة في الزراعة وتربية الحيوان وبعث بالخبراء في زراعة الأفيون والدباغة وأعمال الجبس والجير وكلها باءت بالفشل . ولكن اصلاحات السواقي وتجربة زراعة النيلة وقصب السكر وأشجار الفواكه نجحت . ويلاحظ أن محمد علي كان يشرف على كل صغيرة وكبيرة في هذه الفترة لأنه لم يدخل في حروبه ضد السلطان ومع ذلك فقد ظهرت بوادر الرشوة والاختلاس في تلك الادارة التركية . والى ذلك الحين لم يفقد محمد علي الأمل في تحقيق أول أهدافه لفتح السودان وهو إرسال السود الصالحين للجندية وبدأ خورشيد وزميله حاكم كردفان بتصدير الماشية والجمال .

وتدرج خورشيد الى ان أصبح حكمدارا على كل السودان ورقي الى درجة

الميرميران وبدأ السواح الأجانب يترددون على السودان ولاحظوا الرق في البلاد واشتراك الحكومة فيه وبدأ ضغط على محمد علي من قبل قناصل الدول الاوروبية ونتيجة لذلك اصدر محمد علي تعليماته للحكمدار بالغـــاء الكثير من مظاهره . واهتم محمد علي بمسألة منجم الذهب في بني شنقول وبعث بالمهندسين وكانوا يسمون بالاسطوات آنذاك لغرض استخراجه ولم يرض عن التقارير التي كانت تنزع الآمل من استغلاله .

وعندما وصلت الى مسامع خورشيد إشاعة مؤامرات على الحدود الحبشية ترمي الى التغلغل في السودان من جانب الأحباش بالاتفاق مع بعض القبـائل السودانية طلب إمدادات من مصر وجهزت بقيادة أحمد باشا أبو ودان . ولكنها كانت مجرد إشاعة وقدر لأحمد باشا ان يبقى لينوب عن خورشيد الذي سمح له باجازة ولكنه لم يرجع وعين أحمد باشا سنة ١٨٣٨ حكمدارا مكانـــه . وحزن لفراقه الأهلون ودون لنا الشيخ أحمد كاتب الشونة في مخطوطته مـا نصه : « وتجهز بكامل ما لديه ونزل بالمراكب فصعب ذلك على الاهالي جميعاً وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع حتى قيل ان الشيخ عبد القادر هجر نفسه من الأكل والشراب يومين حزنا على فراقه » .

احمد باشا ابو ودان :

وكان أحمد باشا من مماليك محمد على الشراكسة وممن حاربوا تحت قيادة ابراهيم باشا في سورية وارتقى بكفاءته وذكائه الى رتبة الميرميران وكان عهده استمراراً لعهد خورشيد في العدل والاستقرار وأطراه الشيـخ أحـمـد بقوله : « وضبط الحكومة أشد الضبط من غير اهمال ولا تفريط وأبطــل كل ما كان من تعدى العساكر على الفلاحين من تسخيرهم في الأشغال وتسخير بهائمهم فانزجروا جميعاً ورفعوا أيديهم كلية خوفاً من سطوته وبذلك ارتاحت الأهالي وزادت العمارة وكثر الخير . وخصبت الأراضي ورخصت الأسعـار

وحتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وصارت أيامه أحسن من أيام سلفه وإن كانت أيام سلفه أيضاً حسنة في نفسها » .

والظاهر أنه باحتلال محمد على لسوريا تضخمت مصروفاته في الناحية العسكرية ونراه يطالب بارسال الصمغ من السودان ليفرج الضائقة المالية وبدأ يفكر جدياً في أمر معدن الذهب ليخرجه من ضائقته . ولما يئس من كل المحاولات في هذا الصدد رأى أن يسافر بشخصه لهذا الغرض ووصل إلى منطقة فازوغلى وأقام بها مدة من الزمن وقفل راجعاً بعد أن تأكد بنفسه أن ما يحصل عليه الاهلون بطريقتهم البدائية من الذهب القليل لا يصلح للتعدين بطريقة حديثة تملأ خزائنه منه .

وأكبر نشاط قام به أحمد باشا في عهده هو فتحه لأقليم التاكة في شرق السودان . فسار على رأس جيش إلى شندى ومنها إتجه شرقاً الى قوز رجب وسلمت له بعض القرى دون مقاومة ولكنه عندما توغل في منطقة خور القاش وأرضه الوعرة ذات الغابات قاومه الهدندوة ولكن لا قبل لهم بالأسلحة النارية وطلبوا الصلح وأقام أحمد باشا معسكره في المكان الذي عرف فيما بعد بكسلة . غير أن القبائل تمردت واستلزم الامر تسيير حملة أخرى من كسلا تمكنت من الانتصار عليهم وانهارت المقاومة . وبدأ أحمد باشا ببناء سد من التراب لتحويل مياه فيضان القاش الى أراض جديدة لزراعتها . وعند رجوعه من التاكة بعد أن انشأ مديرية هناك بدأت الاشاعات تبيض وتفرخ عن نيات أحمد باشا في الاستقلال عن محمد علي والاتصال رأساً بالسلطان في استانبول : وقلق محمد علي واستدعي أحمد باشا ولكنه لم يلب النداء في الحال وزاد هذا في قلق محمد علي وبدأ يستفسر حكام الاقاليم في الصعيد وفي شمال السودان عما سمعوه وهل وصلهم الحكمدار واخيراً توفي أحمد باشا في الخرطوم قبل ان يغادرها : وانتشرت الاشاعات أنه مات مسموماً بايماز من محمد علي مما جعله يتنصل عن هذه التهمة ويخاطب مدير

الوجه القبلي وهو ممن لهم علاقــة بالمتوفي بقوله « والله العظيم وبالله الكريم أنني لا احمل في نفسي للباشا المرحوم أي شيء من السخط ولا اشـــك في إخلاصه وإني لاقدر مبلغ جهوده وقيمة خدماته وأعرف ما كان يكنه لي من المودة والولاء وأنا واثق من ذلك » .

احمد باشا المنكلي :

ولم يشأ محمد علي أن يعين حكمدارا على تلك الاراضي الشاسعة بسلطات واسعة ربما تحدثه نفسه بالاستقلال كما أشيـع عن احمد باشـــا . فالغى الحكمدارية وأرسل احمد باشا المنكـــلي بلقب منظم لتوزيـع الجيش على المديريات وتعيين الحدود وغير ذلك مما تستدعيه سياسة اللامركزية . ولكن قدر للمنكلي أن يبقى ثلاث سنوات ليشهد الخلافات بين المديرين وبينه وبـين مدير الخرطوم وتيقن محمد على بعدها أنه لا بد من وجود سلطة مركزية في الخرطوم فعين خالد باشا حكمدارا ولكنه من أولئك الذين يطلبون الاذن من محمد علي إذا أراد ان يرسل لحيته ولعله اراده حكمدارا مطيعاً بعيـداً عن المطامع الشخصية وكان آخر حكمدار في عهد محمد علي .

ادارة محمد علي للسودان :

ومن محاسن ادارة محمد علي أنه جعل السودان ادارة مركزية موحـــدة وأزال تلك الممـلكات والامارات الصغيرة التي كانت الطابـع الرئيسي لعهـد الفونج وما قبلهم واتصل بالسودان بالعالم الخارجي وحاول محمد علي أن يجري إصلاحات تهدف الى تحسين طرق الزراعة والري وزيادة الانتـــاج الحيواني ولكن مقابل ذلك استورد للسودان مساوىء الادارة التركية بحذافيرها . فقد أرهق الاهلون بالضرائب الفادحة والتي لا تتنـــاسب مع امكانياتهم الانتاجية وفوق ذلك فطريقة جبايتها فيها من القسوة ما لم يتعودوا عليه . وفي مفتتح عهده كانت الغزوات توجه للجبال لتنزل السود من معتصماتهم

لينخرط اللائقون منهم في سلك الجندية وليباع الآخرون في سوق النخاسة . وإدارته عموماً كانت تجري على نسق تجاري ترمي الى تسخير طاقة البلد الانتاجية كلها للميري .

عباس وسعيد :

وفي عهد عباس الأول ظهرت الجمعيات التبشيرية وظهر التجار الأجانب في السودان وبالتالي أسست القنصليات الاجنبية وعندما حاول عبد اللطيف باشا الحكمدار (اكتوبر ١٨٤٩) إخضاعهم للسلطة وتحديد أسعار الحاصلات وعقاب من يخالفها احتجوا على هذه الاجراءات التي تخالف في عرفهم حرية التجارة في البلاد العثمانية ونجحوا في استدعاء عبد اللطيف باشا . ونتيجة لذلك تدفق التجار الأوروبيون الى السودان وتوغلوا جنوباً فيما بعد حتى صرنا نرى بعضهم يتاجرون في الرقيق عندما تبين لهم أنها خير من السن والريش . وعباس الذي عرف بسياسته الرجعية في مصر رأى أن يؤسس مدرسة في الخرطوم لتكون منفى لرفاعة رافع الطهطاوي وغيره من المثقفين والعلماء . وشاهدنا في عهد عباس إبطال العمل في منجم الذهب لعدم جدواه والغاء مصلحة المواشي السودانية التي كانت تموت في الطريق لمصر وهناك لا يلائمها المناخ .

وافتتح سعيد عهده بالغاء الجمارك بين مصر والسودان وأصدر أوامر صريحة يبطل فيها الغزوات التي كانت توجه ضد السود في معتصماتهم في الجبال لغرض الجندية والأغراض الحكومية الأخرى ومنع جلب الرقيق وبيعه بمصر والسودان . غير ان تنفيذ مثل هذه الأوامر آنذاك يصعب تحقيقه داخل السودان .

ويبدو ان سعيد باشا عندما درس الأحوال في السودان تبدت له مساوىء الادارة وأول خطوة اصلاحية هي ارسال أخيه الأمير عبد الحليم حكمدارا

للسودان ولكنه قفل راجعاً بسبب وباء انتشر هناك . وشد سعيد الرحال بنفسه في موكب ضخم للسودان ووضح أغراضه بقوله « وبما أنني صممت العزيمة منذ مدة على ان أرى تلك البلاد وأتبين أحوالها وأوضاعها وأقف على ما يجري فيها أولاً بقصد السياحة وثانياً تحت حاجة النزهة فعزمت على ان أذهب اليها بذاتي لكي نضع لها فيما بعد النظم التي تكفل عمران تلك البلاد والحوالي وتكون بها الرفاهية للرعايا والأهالي » .

وفي أول منطقة العمران في بربر انهالت عليه الشكاوى والعرائض يتظلم أصحابها من الحكام والمشايخ ورأى بعينه حالة البؤس والفقر . وتخمرت في ذهنه فكرة اللامركزية وتخفيف الجهاز العسكري وتعيين العمد والمشايخ جباة للضرائب التي خفف عبئها بدلاً من الباشبوزوق ووضع أسس سياسته الجديدة في أوامره حيث يقول « وقد تحرك ركبنا للقدوم الى الاقاليم السودانية لنطلع على أحوال من فيها ومعاملتهم بالرفق والرحمة ولما حلت ركائبنا بها شاهدنا ما عليه أهاليها من الضنك والمضايقة بسبب كثرة المطاليب المربوطة على السواقي والأطيان فضلاً عما كان يؤخذ خلاف ذلك ... اقتضت إرادتنا ترك ذلك جميعه وترتيب مال مربوط على قدر طاقة الأهالي حتى يسكن روعهم ويعمروا أوطانهم » . وكما فشلت سياسة المركزية في عهد محمد علي فشلت الآن في عهد سعيد مما اضطر اسماعيل ان يعيد سلطة الحكمدار في الخرطوم عندما كان قائمقاماً بدلاً عن عمه سعيد وهو في فراش مرضه الاخير .

عهد اسماعيل :

عين موسى حمدي باشا في مايو سنة ١٨٦٢ حكمدارا للسودان وكانت أولى أعماله تنظيم الضرائب ومواعيد جبايتها بالتشاور مع مجلس ضم كبار النظار والمشايخ وبدأت في عهد اسماعيل سياسة سودنة وإشراك بعض السودانيين في الحكم حيث عين بعضهم كمديرين للمديريات ورقى بعضهم في

وظائف كبيرة في الجيش وأجرى موسى حمدي إصلاحات في الجيش حيث أدخل عليه عنصراً جديداً من الشبان واستغنى عن خدمات الطاعنين في السن وذوي العاهات وقوى جهازه العسكري بتجنيد عدد من الشبان قبائل الشلك والدنكة وقبائل فازوغلي حيث أعفى المشايخ من الضرائب بمقدار خمسة جنيهات عن كل شاب يحضرونه للتجنيد وهذا نوع من الرق حل محل الغزوات . وتقوية الجهاز العسكري استلزم مصروفات إضافية لم تقو على مجابهته إمكانيات البلاد الاقتصادية وهذا ما أدى بالضرورة الى زيادةالضرائب على الأهلين والتشديد في جبايتها بطرق وحشية ومع ذلك كان الحكمدار يطالب بسد العجز من الخزينة المصرية . وزاد اسماعيل من مشاكله الادارية بأن الحق ثغري مصوع وسواكن بالسودان بصفة دائمة عندما اتصل بالباب العالي لهذا الغرض وعضد طلبه هذا بالهدايا للسلطان والرشاوى لرجال حكومته .

وزيادة مصروفات الحكومة للجهاز العسكري والاداري مع موارد البلاد المحدودة جعلت اسماعيل يجري تعديلات ادارية متعددة عله يجد مخرجاً للمشاكل المالية . فمرة يجعل من السودان وما أضيف اليه من أراضي ثلاث مناطق مستقلة عن بعضها وأحياناً يجعل من الغرب وحدة قائمة وكذلكالشرق ويقسم السودان الأوسط إلى قبلي وبحري .

ومما زاد في اضطراب الأحوال ثورة الجهادية السود في حامية كسلا حيث أعلنوا تمردهم وعصيانهم ولم تهدأ ثورتهم الا بعد تدخل الزعيم الروحي السيد الحسن المرغني وحزم الرجشمة عبدالله باشا وآدم بك العريفي . ولقد وضح من التقرير الذي قدمه جعفر مظهر باشا للخديوي أن اسباب التمرد تتلخص في عدم التدريب العسكري ، وفي افتراق الجنود عن ضباطهم الاشهر المديدة لجباية الضرائب وما تفوه به بعض قوادهم من الفاظ مسيئة لهم . واستدعى الأمر حضور شاهين باشا ناظر الحربية للخرطوم لتقصي الحقيقة

في الادارة والجيش ومن نتائج تقريره حدثت اصلاحات في الجيش وتم تعيين جعفر باشا مظهر حكمداراً للسودان (ديسمبر سنة ١٨٦٥ م) .

وشهد عهد جعفر مظهر الذي امتد إلى ما يقرب من ست سنوات انشاء ضبطيات قضائية تقوم بمهام البوليس في المدن كالخرطوم ودنقله وبربر والأبيض وكسلا وسواكن ومصوع وشهد عمراناً للعاصمة وعرف جعفر مظهر بحبه للعلم والأدب ولكن سياسته في الضرائب قادت الى نزوح الكثيرين من سكان مديريتي بربر ودنقلا الى السودان الأوسط وبعضهم الى جنوب السودان وقد وضع ضرائب باهظة على السواقي لا لغرض جبايتها بأكملها من الأهلين بل كان يرمي الى معرفة ما يمكن جبايته فعلا . وعلى هذا الضوء في مدى نحو ثلاث سنوات يضع المتوسط الذي أمكن جبايته ولكنها القت الذعر في نفوس المزارعين وهجر كثير منهم السواقي ونزحوا وصادف ازدهار التجارة وتغلغلها في جنوب السودان والتحقوا بكبانيات بحر الغزال .

وشهدت حكمدارية اسماعيل ايوب باشا (نوفمبر سنة ١٨٧٣) نهضة تعليمية حيث أنشئت خمس مدارس ابتدائية في الخرطوم وعواصم الأقاليم ودونت لنا خطابات إسماعيل الحكمدار ماهيات شهرية للعلماء والمدرسين في كثير من المساجد التي تدرس العلوم الدينية وكذلك ربط كميات من الذرة لغذاء الطلبة فيها وربطت كل المدن الهامة بخطوط التلغراف مع بعضها وبمصر وبدأ العمل في السكة الحديد السودانية بين وادي حلفا جنوبا محاذية للنيل .

وفي عهد اسماعيل أيوب ايضاً بدأ اسماعيل يتوسع نحو منابع النيل وفي جهات بحر الغزال وكان يهدف الى غرضين إبطال تجارة الرقيق والتوسع نحو الجنوب . بدأت محاولات منذ عهد محمد علي حيث تعمقت رحلات سليم قبطان فيه وتلاها صعود المراكب في النيل الأبيض للتجارة احتكاراً للحكومة . ولكن ظهر التجار من أوربا ومن اجزاء الدولة العثمانية في تلك

الأنحاء عندما زال الاحتكار الحكومي ودخل المهاجرون من مديريات الشمال في خدمة هؤلاء التجار ووجدوا في تجارة الرقيق ناحية رابحة أكثر من سن الفيل وريش النعام . وشهد الرحالون والمكتشفون المآسي عندما مروا بتلك الاصقاع .

وتنبه اسماعيل لهذه الحالة ويتضح لنا من خطاب بعث به اسماعيل للحكمدار معلقاً على مسلك مدير النيل الأبيض ما وصلت اليه الحالة من اشتراك الحكام أنفسهم في تجارة الرقيق حيث يقول « ان أهم ما نفكر فيه ونسعى الى تحقيقه هو ادخال السودان ، بما فيه جهات البحر الأبيض في دائرة المدنية والعمران كما هي الحالة في أقاليم الحكومة الأخرى، ومع ان السودان لا ايراد له في الوقت الحاضر فاننا لمجرد ادخاله في هذا الطريق ورغبة في إسعاد أهاليه قد انشأنا مديرية البحر الأبيض التي كلفتنا انشاؤها الكثير من النفقات. وبينما نحن نعمل على انشاء مديريات أخرى في الجهات العليا ونسعى لعمران تلك الأرجاء آملين انضواء الأهالي تحت لواء الحكومة اذا بالحوادث تقع على عكس ما نرغب ونأمل وهذا ما يدعو الى الأسف الشديد الذي لا يمكننا ان نعرف مداه .

« ان مدير البحر الأبيض لم ينظر الى أن أهم واجباته هي حفظ الأمن في تلك الجهة وقطع دابر الأشقياء والأشرار والسعي الدائم لعمران مديريته وإسعادها جاعلاً ذلك نصب عينيه عاملا على تحقيقه ولم ينظر الى ان واجب العمل يقتضي على أمثاله الموظفين بأن يسعوا بكل الطرق الممكنة لاجتذاب قلوب الأهالي نحو الحكومة وجعلهم مطمئنين اليها ... فبينما الحكومة قد ألغت بيع الرقيق الذي استرد من الأشقياء إذ هو يعيد بيعه لحسابه ، وفي ذلك ما فيه من الاستهتار بأوامر الحكومة . ومن أجل ذلك يجب ان لا يكتفى بعزله وإنما يجب ان يرسل ايضاً الى فازوغلي ليعتقل هناك ويستخدم بالأشغال الخسيسة ليكون عبرة للآخرين .

«أما الرقيق الذي باعه فيجب استرداده وإعادته الى أوطـانه بالراحة وإسكانه فيها وأطلب ان تعملوا على عدم وقوع مثل هذه الحوادث المؤلمة مرة أخرى وان تحولوا دون تعدي الأشقياء والأشرار على الجهـات التابعة لهذه المديرية هذا مع التوسل بالأسباب المؤدية الى تمدين البلاد وعمرانها» .

الزبير باشا :

وضعت ضريبة سميت بالويركو على كل بحار وعامل يعمل في المراكب التي تصعد الى النيـل الأبيض وشددت الوابورات الحكومية الحراسة على النيل ولكن مصادر الرقيق لا تزال خارجة عن سيطرة الحكومـة وعرف التجار تفادي مراكز الرقابة وعرفوا رشوة الحكام في الطريق وأرسلت الحكومة حملة بقيادة محمد البلالي ولكن حلف التجار في بحر الغزال بقيادة الزبير رحمة الجميعابي دمر هذه الحملة وتغلب عليها وقتل قائدهـا . وعرف الزبير بفطنته وذكائه ان الحكومة لا بد وأنها تسير عليه الحملة تلو الحملة ولا قبل له بلاقاتها ورأى ان يوسط حسين بك خليفة العبادي مدير بربر لدى الخديوي ليعفو عنه مظهراً الخضوع والطاعة ومبدياً استعداده للسفر الى القاهرة والمثول امـام الجناب العـالي . واقتنع الخديوي بذلك وأرسلت للحكمدار في الخرطوم بالاتفاق مع الزبير عندما يحضر للعاصمة وتعيينه مديراً لبحر الغزال .

ولكن لم يقدر للزبير الحضور للخرطوم بل دخل في مغارة حربية أدت في نهايتها لفتح دارفور . وبدأت المشكلة بأن تعدى عربان الزريقات في جنوب دارفور على قوافـل بحر الغزال وسار الزبير شمالاً لتأديبهم وانتصر عليهم وهرب زعماؤهم ملتجئين بسلطان دارفور ابراهيم بن حسين وطلب الزبير من السلطان وألح في الطلب بتسليم هؤلاء الزعمـاء له ولكن السلطان لم يشأ ان يسلم من التجأ اليه ولا سيما أنه يعتبرهم من رعاياه . وتقدم الزبير شمـالاً غازيا ديار السلطان وتغلب على جيوشه التي أرسلها لملاقاته . وأثنـاء ذلك تحركت

انجدت من الخرطوم الى الأبيض على رأسهـا اسماعيل أيوب الحكمدار واتخذت طريقهـا غرباً لتدخل اقليم دارفور ، غير ان الزبير قضى على آخر مقـاومة من مملكة دارفور بانتصاره على جيش يقوده السلطان بنفسه ومات السلطان صريعاً في الميدان ودخل الزبير الفاشر عاصمة المملكة بأيام قبل وصول اسماعيل ايوب اليها وبذلك زالت دولة افريقية اسلاميـة أسست في الوقت الذي قامت فيه دولة سنـار على يد قوات الزبـير ومجهوداته الخاصة .

ولكن الزبير نفسه أصبح مشكلة لحكومة الخديوي . فبالرغم من أنـه أظهر الولاء والطاعة للحكومة إلا ان الحذر التركي لم يطمئن اليه ويرون انه لا بد وان يتمرد اذا جعلوه حاكما على كل الاراضي التي تم فتحها على يديه . وبدأت التلغرافات تتبادل بين اسماعيل ايوب من الفوجة غرب النهود والخديوي في القاهرة فتارة يقترحون توجيه جهاز الزبير الحربي الى فتوحات الى الغرب في برنو وغيرها وأخرى يرون تعيينه في احدى مديريات دارفور ومرة يرون إرجاعه لبحر الغزال . وهم اثناء ذلك يتخوفون منه وينتظرون الى ان تصل امدادات تتفوق على جهازه الحربي .

واخيراً حل الزبير مشكلته بنفسه حيث طلب النزول الى القاهرة ليعرض أمره على الجناب العالي ظناً منه ان كل العقبات التي وضعت في سبيله كانت من عمل الحكمدار وتنفس الاسماعيلان الصعداء ووافق الخديوي على هـذا الرأي ونزل الزبير باشا الى القاهرة وظـل هناك لا يسمح له بالرجوع الى السودان .

بيكر وغوردون في الاستوائية :

أما التوسع نحو البحيرات فقد ارتبط بشخصيتين إنجليزيتين همـا سير صموئيل بيكر المكتشف وغوردون الضابط الانجليزي . حضر صموئيـل

بيكر في سنة ١٨٦٩ الى مصر بمعية ولي عهد بريطانيا لحضور حفلات افتتاح قناة السويس وتم التعاقد معه على أن يقوم بحملة الى خط الاستواء وضمنت مهمته في الأمر الذي وجهه اليه الخديوي « نظراً للحالة الهمجية السائدة بين القبائل القاطنة في حوض نهر النيل ونظراً لأن النواحي المذكورة ليس بها حكومة ولا قوانين ولا أمن ولأن شرائع الانسانية تفرض منع النخاسة والقضاء على القائمين بها المنتشرين بكثرة في تلك النواحي – ولأن تأسيس تجارة شرعية في النواحي المشار اليها يعتبر خطوة واسعة في سبيل نشر المدنية ويفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى الواقعة في خط الاستواء بواسطة المراكب التجارية ويساعد على اقامة حكومة ثابتة » . وفتحت الخزينة المصرية لسير صموئيل ليغرف منها ما يشاء لاستعداداته . فذهب بنفسه لانجلترا وطلب من بناة السفن تجهيز سفن خاصة تصلح للملاحة في تلك البقاع واشترى كل المهمات التي يحتاجها لحملته . وعندما تجمعت معداته في الخرطوم أقلعت بواخره ومراكبه صوب الجنوب على النيل الأبيض واراد ان يختصر الطريق ويسير ببحر الزراف بدلاً من بحر الجبل ولكن السدود اضطرته للرجوع ليعسكر بجنوده في مديرية فشودة حتى يفيض النيل مرة اخرة ويستأنف سيره ليصل مقر رئاسته المزمعة في غندوكرو في ١٥ أبريل سنة ١٨٧١ وفي ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ غادرها معتزلاً الخدمة لانتهاء عقده . فماذا أنجز في غضون هاتين السنتين ؟

لاقى منذ البداية مقاومة من التجار وعلى رأسهم أبو السعود وكيل شركة العقاد لأنهم يرون في بيكر معتديا على منطقة نفوذهم ونجح التجار في إثارة القبائل ضد الحملة وامتنع الأهالي عن تقديم المؤن لرجال الحملة مما اضطر بيكر للسماح لجنوده بشن الغارات على قبيلة الباريا واغتصاب الذرة والبقر منهم . تقدم بيكر وأسس نقطة ثانية في فاتيكو وثالثة في فويرة ووصل الى مازندي على ضفاف بحيرة البرت ووجد حفاوة من كباريجا ملك أونيورو في اول الأمر ولكنه تنكر لبيكر في آخر الأمر وهاجموا معسكره وقطعوا عنه

المؤن . وما كان لبيكر إلا ان يتراجع ويحرق امتعته الثقيلة وقاسوا من وعورة الطريق واعتداءات الاهالي وغادر بيكر خط الاستواء تاركاً ثلاث نقاط عسكرية يرفرف عليها العلم التركي ولكن تلك الحاميات ظلت محصورة في معسكراتها ولا تستطيع التوغل بعيداً عنها .

ولرغبة اسماعيل في التوسع وإبطال تجارة الرقيق تعاقد مع غوردون ليواصل مهمة بيكر ونجح غوردون أكثر من سلفه حيث زاد عدد الحاميات واطمأن له الأهالي بعض الشيء واتصل بـه أمتيسة ملك يوغنده وأبدى استعداداً لقبول حامية مصرية في عاصمته وعندما أرسل غوردون بالخبر لاسماعيل فسره بأنه طلب حماية مصرية وأعلن النبأ في الصحف ولقناصل الدول . ولكن سرعان ما تنكر امتيسه للحامية وحصرهم ومنع عنهم المؤن مما اضطرهم للتراجع شمالاً بأمر من غوردون . ويبدو ان امتيسة ما كان يظن ان هناك دولاً أقوى من مصر ولكن بعد ان حل الرحالة ستانلي ببلاطه وأنبأه عن عظمة وقوة الدول الأوروبية تنكر للحامية المصرية ولانه كان يهدف الى ان تساعده الحامية المصرية على خصومه ولكنهم امتنعوا عن ذلك.

ورأى غوردون ان اتصال المناطق الاستوائية التي ضمها لامبراطورية إسماعيل يجب ان يكون بشرق افريقيا وساحلها لا عن طريق النيل واقترح تجهيز حملة بحرية تحتل الساحل ويسيّر هو من جانبه حملة برية تشق طريقها للساحل وتلتقي بتلك التي تتجه من الساحل غرباً ولكن الانجليز تنبهوا للأمر فأوعزوا لسلطان زنزبار ان يحتج وهم من جانبهم ضغطوا على إسماعيل ليأمر برجوع حملته البحرية وقد فعل .

غوردون حكمدار للسودان :

وانتهى عقد غوردون وما كان ينوي تجديده ولكنه وعد اسماعيل انه ينظر في الامر . وعندما علم اسماعيل بنية غوردون في عدم التجديد خاطبه

عواطفه لا عقله وأذعن غوردن وطلب ان يعين حكمدارا على السودان بأكمله ظناً منه ان اسماعيل سوف يرفض الطلب . ولكن لدهشته قبل اسماعيل وعينه على تلك الامبراطورية المترامية الاطراف بسلطات واسعة يستطيع معها القضاء على الرق وتجارته ، وظل غوردون باشا حكمدارا منذ فبراير سنة ١٨٧٧ الى ان خلفه محمد رؤوف باشا في سنة ١٨٨٠ في رحلات لاجزاء امبراطوريته الشاسعة على البعير معظم الاحيان وفي المراكب على النيل وعلى البحر الاحمر من السويس لسواكن ومصوع . يشرف بنفسه على الحدود الحبشية ومشا كلها وعلى ثورات أمراء الفور في دارفور ويجهز حملة على رأسها جصي الايطالي لحرب سليمان الزبير بتهمة التمرد .

وظل يغدق الرتب والنياشين على كبار السودانيين ومشايخ القبائل ويعين بعضهم في مناصب ادارية كبيرة في الاقاليم ظناً منه ان العنصر التركي والذي كانت بأيديه السلطة هو سبب البلوى. ولكنه بعد حين اكتشف ان السودانيين لا يقومون بمهام الحكم كما اعتقد فيهم ويتجه نحو الاوروبيين من مختلف الجنسيات وخاصة في المديريات الجنوبية وفي دارفور حتى رأينا عدداً منهم في وظائف مختلفة عندما قامت الثورة المهدية . ووجد من وقته متسعاً ليضع مشروعاً لابطال الرق وهي مهمته الاولى . تضمن المشروع اعتراف الحكومة بتملك الرقيق الحالي لمالكيه ولكنها تمنح المملوك ورقة العتق اذا ما ثبتت سوء معاملته ويطلب من المالكين تسجيل رقيقهم في مديرياتهم المختلفة بموجب تذكرة يحملونها باسم المملوك وأوصافه ويستمر الملك لمدة اثنتي عشرة سنة في السودان ليصبح المملوك بعدها حراً . وضمت هذه المقترحات في مشروع كبير انتهى بعقد معاهدة بين مصر وانجلترا بشأن الرقيق. ولا بد ان هذه الاخبار قد تسربت الى الناس بالرغم من ان المقترحات لم توضع موضع التنفيذ ولا بد أنها أحدثت هزة كبيرة لان الرقيق كان عنصراً أساسياً في المجتمع آنذاك .

وهذه المجهودات من اسماعيل وغوردون في الغاء الرق وتجارته صادفتها عقبات يصعب تذليلها . فالرق في السودان طبع عليه الناس من اقدم العصور وأصبح جزءاً هاماً في حياتهم الاقتصادية فالزراعة وسقي الماشية ورعيها معظمها موكول أمرها للرقيق والحكام الاتراك أنفسهم ينقصهم الحماس لتنفيذ مثل هذه الاجراءات ، وكثير منهم يخضع للرشوة وفوق كل ذلك فالسودان بلاد مترامية الأطراف تصعب فيها رقابة فعالة على الطرق . والقبائل الجنوبية نفسها تتعاون مع التجار لتحارب أعداءها من القبائل الأخرى لاسترقاقهم ، واخيراً شغل اسماعيل بمشاكله المالية وتدخل الدول الاوروبية والتي ادت في نهايتها لاقالته وتنصيب ابنه محمد توفيق بدلاً عنه ولم يبق غوردون كثيراً في حكمداريته بعد عزل صديقه اسماعيل والحقبة التي تلته ما هي الا مقدمة للثورة المهدية ونستطيع ان نعتبرها جزءاً منها .

صورة عامة للعهد التركي :

والآن وقد تابعنا تطور الادارة والحكم في السودان في العهد التركي – المصري يجدر بنا ان نقف قليلا لنشيع العهد ونلقي نظرة لنتبين منها المعالم الرئيسية ونلم بالنظم الادارية والقضائية والمالية . والعهد بأكمله ككل العهود فيه فترات من الطمأنينة والاستقرار وفيه فترات الفوضى والظلم ويختلف الرجال الذين تولوا شئون البلاد من حكمداريين ومديرين وكشاف من حيث مقدرتهم على الادارة وانسجامهم وتجاوبهم مع السكان ومن حيث نظافة ثوبهم وعفة انفسهم والصورة التي تبرز لنا وتجذب انظارنا هي الضرائب الباهظة وسوء الطريقة التي تجبى بها . وولاة مصر نقرأ في توجيهاتهم وخطاباتهم وفرماناتِ تعيين الحكمداريين نوايا طيبة والتفاتات حميدة ومراعاة العدالة وتجنب الظلم ومع ذلك كثرت حوادث الرشوة والاختلاس وحوادث التعسف في جباية الضرائب . وكما قدمت في عهد محمد علي أن ميزة الادارة الواضحة مركزيتها وسريان سلطتها على كل الاقاليم وبذلك كونت للسودان وحدته بعد

أن كان إمارات ومشيخات لكل حكمه الذاتي وقليلا ما خضع لسلطة مركزية .

والقضاء كما كان في بقية أجزاء الدولة العثمانية تمارس فيه الشريعة الاسلامية في الأحوال الشخصية فقط وفيما عدا ذلك فالقانون الهمايوني وشكلت مجالس محلية في المدن الكبيرة للنظر في القضايا الصغيرة . اما القضايا الكبيرة فيبت فيها المديرون أنفسهم وبعضها تحال للقاهرة . وكونت في المدن ضبطيات قضائية بقواصيها تباشر التحقيق في الجرائم وتقديمها للمحاكمة والجيش ضم جنودا مصريين وسودانيين وبدأ العنصر السوداني يتزايد في السنين الاخيرة من العهد حتى رأينا أن معظم الحاميات كان يقوم على حراستها جنود سودانيون قبل اشتعال نار الثورة المهدية .

والتجارة الخارج ظلت تتبع طرق القوافل التقليدية لمصر أو لميناء سواكن وتصدر البلاد العاج وريش النعام والتمر هندي والسنامكي والجلود وقرون الخرتيت والنيلة والمسك والزفت والشحم والعسل والذرة والملح . وتستورد البلاد المنسوجات القطنية والآلات الحديدية القاطعة والروائح العطرية والخرز وغيرها . وظلت مدارس العلم والقرآن تؤدي رسالتها كما كانت وكما وضعت ركائزها في عهد الفونج وظلت الطرق الصوفية يرشد مشايخها الأهلين ويؤثرون عليهم والنعرة القبلية ظاهرة المجتمع بالرغم من أن العهد جعل الادارة مركزية ممعنة فيها وسنرى كيف مهد هذا الجو الصوفي ومحنة الضرائب وقوانين الرق للثورة المهدية .

الفصل الثالث

المرحله الاولى للثورة المهدية

نشأ محمد أحمد بن السيد عبدالله في جزيرة لبب بالقرب من دنقلة من عـائلة تحترف صناعة المراكب . وهاجر والده وهو صغير السن الى كرري شمال أم درمان . وتوفي الوالد وانتقلت العائلة للخرطوم . ومنذ صغره كان محمد أحمد ميالاً للدراسة والعلم . وبدأت دراسته في خلوة كرري وفي الخرطوم وغيرها واستجابة لتلك النزعة الدينية هاجر الشيخ محمد الخير بالقرب من بربر وعرف بانكبابه على الدرس وبزهـده وتقشفه ، ورأى بعد ان درس الفقه والشريعة أن يمارس حياة صوفية وأن يلتحق بطريقة تشبع نهمه لهذه الناحية ورأى في الشيخ محمد شريف ودنور الدايم شيخ الطريقة السمانية والمقيم في بـلدة « أم مرحى » حيث ترقد رفاة جده الشيخ الطيب مؤسس الطريقة في السودان خير مرشد .

وهناك وجد متسعاً من الوقت للعبادة والتأمل وسمح له بأن يسلك الطريقة . وجو الخرطوم لا يلائم طبيعته الصوفية التي تريد الهدوء والسكينة ونجده بعد حين في الجزيرة (أبا) على النيل الأبيض بالقرب من الكوة وحفر له غاراً داخل الأرض للتعبد مبتعداً عن ضجيج الدنيـا وذاع صيته حتى جعل المراكب التي تبحر في النيل الى فشودة تقف بجزيرته ويتلقى أصحابهـا منه

البركات . وساح في البلاد زائراً الأولياء والصالحين وحدثت جفوة بينه وبين شيخه الشيخ محمد شريف لا نعرف أسبابها . وبعض الروايات تقول بأن شيخه في مناسبة ختان أبنائه سمح للنسوة بالدلوكة والزغاريت وهذا مـا لا يرضاه رجل في درجة محمد أحمد من التصوف والزهـــد والعمل بالشريعة . واتصل بشيخ آخر من مشايخ الطريقة السمانية وهو الشيخ القرشي في الحلاويين .

اعلان المهدية الكبرى :

وبينما كان يعمل بيديه مع زملائه الآخرين في تشييد قبة على ضريح شيخه المتوفي حضر له عبدالله بن السيد محمد التعائشي وأصبح من عداد أتباعـــه ومريديه وقد تنبأ له والده كما يروى أنه سيكون خليفة للمهدي المنتظر.

ومنذ رجوعه مع عبدالله والذي أصبـح خليفته الأول فيما بعـد تشييد القبة على ضريح الشيخ القرشي بدأ محمد احمد ينشر الدعوة سراً الى أصفيائه بأنه المهدي المنتظر وقام برحلة في كردفان وجبال تقلي وعند رجوعه كتب الخطابات هذه المرة صريحة واضحة الى رجال الدين يدعوهم فيهـــا لنصرة الدين وتأييد المهدية الكبرى التي خصه الله بهـا . ووصلت أنباء هذه الدعوى الى الحكمدار محمد رؤوف باشا والذي خلف غوردون . رأى بعد ان تأكد من صحة الخبر ان يبعث بمحمد بك أبو السعود معاون الحكمدارية في وابورخاص ومعه بعض أقارب محمد أحمد وهناك تأكد مبعوث الحكمدار من اصرار محمد أحمد على دعواه وحين ذكر له أبو السعود الآية الكريمة: « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » أجابه محمد أحمد « أنا ولي الامر في هذا الاوان فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

الانتصار الاول :

ولم يبق أمام الحكمدار إلا ان يبعث بقوة مكونة من بلوكين من الجنود.

ورافقهم محمد بك أبو السعود . وعندما أبحر الوابور أبرق محمد رؤوف باشا الى الخديوي بما يلي « في ابتداء شهر رمضان أشيع بأنه موجود بجزيرة أبا التابعة لمديريةفشودة بعيداً من الكوة بمسافة ثمانية ساعات شخص يسمى الشيخ محمد أحمد من أهالي دنقله من مشايخ الطرق يدعي انه المهدي المنتظر وبوقته عينا قاضي الكوة واثنين من العلماء لينظروا الخبر فتوجهوا اليه وتحقق أمر ذلك الشخص واستحصلوا على مخاطباتــه المحررة الى ناسات بخطه وختمه يدعوهم انه هو المهدي المنتظر وأرسلوا تلك المخاطبات لنا بالبوستة فبوصولهم لطرفنا قد عينا واحد وابور وأرسلنا من طرفنا مندوبين وحررنا له جواب بالنصيحة وان يقوم يحضر لطرفنـا وعند وصول المندوبين سلموه المخاطبات فحرر لنا ردهم بانه هو المهدي المنتظر ومن لا يصدقــه فالسيف . ولكون أوروا بانه موجود بعد نحو مائتان نفر قد عينا وابور وبلوكيــن عساكر جهادية وواحد مدفع تحت قومندانية صاغقول أغاسي الطوبجيـة وأعطيناهم التعليمات اللازمة وفهمناهم بانهم يجروا كل الطرق المستحسنة لحضور محمد أحمد بدون زعزعة وان تراءى لهم عدم امــكان حضوره واشهروا عليهم السلاح يجري ضربهم واحضاره بالقوة الجبرية وافادتنا عن كل مايجروه أول بأول وفي يوم الاربعاء الماضي صار قيامهم من الخرطوم الى تلك الجهة ولزم عرضه بالاخطار أفندم » وتاريخ هذا التلغراف ١٤ أغسطس ١٨٨٢ .

وكل من عرف السودان يدرك ما يعنيه طقس أغسطس فهو قلب موسم الأمطار وفي جزيرة كابا ملتفة الأشجار وأرضها طينية سوداء تصعب الحركة فيها في ذلك الوقت للطين والوحل وخاصة لمن لا يعرف دروبها ومسالكهـا وعلى الأخص بالليل . وهذا ما حدث فعلاً اذ نزلت الجنود بالليل والشخص الوحيد الذي شاهد الجزيرة من بينهم هــو ابو السعود الذي بقي بالوابور واختلف القواد فيما يفعلونه ودخلوا الغابة والأوحال دون نظام وهناك محمـد أحمد مع أتباعه بعد صلاة التراويح كانوا على استعداد بما يملكونه من سيوف

وحراب وعصي وفوق كل هذا كانوا يعتقدون في المهدي المنتظر الذي يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً وظلماً ويتسابقون للفوز بالشهادة وسعادة الدار الأخرى .

ومنذ أن غادره أبو السعود أدرك ان الحكومة لا بد أن توجه اليه قوة حربية ووصلته أنباء الوابور من بعض أقاربه الذين كانوا في الفشاشوية . وفي تلك الليلة التي حدثت فيها الملاقاة أمر باحضار راياته الخمسة بعد صلاةالتراويح وكان مكتوبا على كل منها لا إله إلا الله محمد رسول الله وفي الأولى اضيف الجيلاني ولي الله والثانية أحمد الرفاعي ولي الله والثالثة ابراهيم الدسوقي ولي الله والرابعة أحمد البدوي ولي الله والخامسة خالية فأمر المهدي بفرع من الاراك ودق طرفه حتى أصبح كالفرشاة فكتب به على كل الرايات محمد المهدي خليفة رسول الله . فكانت تلك اللحظة الفارق بين الطريقة والمهدية وأصبح إسمه بعدها محمد المهدي بدلاً من الشيخ محمد أحمد ثم عين النقباء لأصحابه الذين لا يزيدون على المائتين .

وفي مثل هذه الظروف التي وصفناها انتصر أصحاب الرسالة الدينية على الجند الحكومي وتمكن بعضهم من اللحاق بالوابور حيث أقلعت لمراسيها وعند الكوة أبرق أبو السعود للحكمدار ونقله هذا للخديوي بما نصه : « ورد تلغراف من معاون الحكمدارية بالكوة يفيد أنه لما توجهت العساكر إلى جزيرة أبا بالبحر الأبيض محل إقامة الشقي محمد أحمد المدعي انه المهدي السابق العرض عنه فبوصولهم هناك ألقوا الأمر الذي بيدهم ولم أرسلوا قاضي جهة الكوة الذي أمرناهم بارساله الى الشقي لأجل يدعوه للحضور وان لم يمتثل واشهر عليهم السلاح يعامل بالقوة الجبرية بل اخرجوا العساكر ليلا الساعة التاسعة (توقيت عربي) وقصدوا محل اقامته لضبطه فوجدوا بعض أشخاص بهيئة دراويش ينوفون عن المائتين نفر مجتمعين وشاهرين بوارقهم فعند ذلك امرهم الريس بضربهم بالرصاص فلم يمتثلوا لأمره وقالوا هؤلاء دراويش

فقراء لا يصح ضربهم ولما اقتربوا منهم فهمّوا عليهم الدراويش وتمكنوا منهم وقتلوا مائة وعشرين عسكري وستة ضباط وهذا نشأ من عدم الانقياد للرئيس المعين معهم وما تبقى من العساكر رجعوا والتجأوا بجوار الوابور ».

الهجرة الى قدير :

وبعد ان انجلت الواقعة الأولى بين القوتين وضع كل منهما خطته . فالمهدي صمم على مغادرة الجزيرة الى جبال النوبة ليكون بعيداً عن حاميات الحكومة والحكمدار امر بتجميع الجنود من الخرطوم وفشودة والأبيض وامر محمد سعيد باشا حاكم كردفان بأن يسد طريق الجبال امام المهدي . وتجهز المهدي مع أتباعه وغادروا النيل متجهين نحو جبال النوبة وسار مدير كردفان مقتفياً أثر المهدي وفي جبال تقلي تعاون الملك مع المهدى وأرهب رجال جيش الحكومة بأن اطلقوا العيارات النارية فوق رؤوس الجبال لتردد صداها في السهول وخاف محمد سعيد باشا على نفسه وجيشه وقفل راجعاً ليبعث تقريره بالتلغراف للحكمدار وبعث هذا بالبرقية التالية للخديوي :

« ان محمد سعيد باشا مدير كردفان بتاريخ ٦ شوال سنة ١٢٩٨ قام بألف عسكر جهادية ومائتين وخمسين باشبوزق ومائتين خيالة من العربان ورجع بتاريخ ٢٣ منه وقدم تقريره عن أنه اقتفى أثره لغاية جبال أم طلحة إحدى جبال تقلي ولما تراءى له ان اهالي الجبال مزعزعين وملك تقلى قبل الشقي بطرقه وجد القوة لا تناسب وضرب جبال تقلي يلزمها ٦ أورط بياده وستة أرادي شايقية لأن ملك تقلي منذ فتوح دارفور تقوى بجلابة بحر الغزال وجلابة شكا وكثير من اهل كردفان تهربوا للتخلص من دفع المالية وحررت خصوصي الى ملك تقلى وأرسلت ابن الياس باشا لكي ينصحه ويرسل هذا الشقي » .

الانتصار الثاني :

استقر المهدي في جبل قدير بعيداً عن حاميات الحكومة وتقاطر عليه الاتباع والمريدين وذاع صيته بينما قلل الحكمدار من أهميته ووجد من أخبره بأن القبائل لا يمكن ان تلتف جميعها حول المهدي لأن العداوات بينها متأصلة وأن بعض اتباعه قد انفضوا من حوله وفي احدى برقياته ذكر أن : الحامل لهذا الشقي على هذه التسببات هم بعض الدناقلة أقاربه الذين كانوا متخذين جلب الرقيق حرفة ، ولم يدرك إلى الآن الدعامة الروحية لهذه الدعوى . ولكن مدير فشوده والذي يعتبر المهدي من رعاياه رأى ان يجرد حملة ليلحق بالمهدي في عرينه في جبل قدير مخالفاً بذلك اوامر الحكمدار فقاد حملة مكونة من نحو ٥٣٠ جندي نظامي وقوة من الشلك تبلغ الألف وجد السير حتى يفاجيء المهدي وأنصاره غير أن طريقة الجبال التقليدية في الاعلام ورابحة الكنائسة التي رأت الجيش في مراحله الأخيرة اسرعت وانبأت المهدي جعلت المهدي يستعد . ونصبوا كميناً لحلة راشد التي وصلت منهوكة القوى وابادوها وكان ذلك في آخر سنة ١٨٨١ م . وزاد هذا في شهرة المهدي وتوافد على قدير الأنصار من كل فج .

الثورة في الجزيرة وشرق النيل الازرق :

وأهلّت سنة ١٨٨٢ وكانت الحركة العرابية قد اشتد ساعدها في مصر وشغل بها توفيق الخديوي والطبقات غير المصرية وكذلك الدول الاوروبية وخاصة انجلترا وفرنسا وهذا مما ساعد المهدي في ثورته حيث كانت أحداث السودان في المرتبة الثانية بالنسبة لما يجري في مصر . وعزى العرابيون إنتصارات المهدي لعدم كفاءة الحكمدار واستدعوه وعينوا عبد القادر باشا حلمي وزيراً لشئون السودان وحكمدارا في الوقت نفسه ، ولكنه لم يصل الخرطوم الا في مايو سنة ١٨٨٢ . ورأى جقلر الألماني الذي استلم من رؤوف

أن السودان بامكانياته العسكرية الموجودة يستطيع القضاء على الثورة وجهز حملة من مختلف الحاميات ومعها متطوعون من كردفان وعقد لواءها ليوسف باشا الشلالي . واوقف إرسال البرقيات لمصر عن تطور الثورة . وأثناء تجمع تجريدة الشلالي خف جقلر باشا بنفسه للجزيرة وسنار حيث شبت ثورات هناك مؤيدة للمهدي وأخطرها ما قام على رأسها الشريف أحمد طه بين رفاعة وأبو حراز حيث رد هجومين للحكومة ولولا مساعدة الشكرية لهم في الثالثة لتفاقم أمر الشريف وفي سنار تمكن عامر المكاشفي من احراز انتصار في أول الأمر ولكن جنود صالح أغا الملك الشايقي تغلبت عليه أخيراً وأختتم جقلر باشا حملاته ورجع ظافراً ولكن النار كانت ما زالت ملتهبة تحت الرماد في الجزيرة وسنار .

الانتصار الثالث :

أما حملة الشلالي فتقدمت غربا إلى جبال فنقر وهناك خان تيفره ملك الجبل المهدي حيث سلم للشلالي جواسيس المهدية بعد أن قبلهم قبل ذلك . وحكم عليهم بالاعدام بطريقة وحشية حيث بترت أعضاؤهم الواحد تلو الآخر وتقبلوا هذا العذاب بروح راضية ونفس مطمئنة وتعالت أصواتهم بحياة المهدي والمهدية وسرهم أن ماتوا شهداء حيث تحققت آمالهم للفوز بجنات الخلد . وكان هذا المشهد على مرأى ومسمع من جنود الحملة ، ولا شك أنها كانت دعاية في صالح المهدي ولها أثرها في روح الجنود المعنوية لأن رجالاً وصلوا هذه الدرجة من الاستبسال والعقيدة تصعب ملاقاتهم . وتبادل المهدي والشلالي الخطابات على مستوى العقيدة . فالشلالي ركز دعايته في ان طاعة خليفة المسلمين واجبة وان إنكار المهدية لا يقود الى الكفر وان دعوى المهدي ما هي الا مبالغة وإغراقاً وشطحات نادى بها درريش ورد المهدي بأن النبي ﷺ أخبره بأن من شك في مهديته فقد كفر وماله ودمه غنيمة . وان النبي صلى الله عليه وسلم ، أمرنا صريحاً بقتال الترك وأخبرنا

بأنهم كفار لمخالفتهم لأمر الرسول باتباعنا وإرادتهم لاطفاء نور الله تعالى الذي أراد به اظهار عدله فكيف نسأل عنهم بعد هذا » . ويلاحظ أنه ما قصد الا محاربة الحكام الترك ومن أيدهم وان هذا الأمر الذي قام به أمر الهي .

تحرك الشلالي بحملته التي بلغت الآلاف من جبل فنقر بعد ان هطلت الأمطار الأولى وانحلت مشكلة المياه في الطريق والمهدي من جانبه علم بتحركها وحشد أنصاره لملاقاتها مستعدين للفوز باحدى الحسنيين ووصل الشلالي وأقام زريبة من الشوك حول معسكره للتحصين ولكن قبل ان تتم التف حولها الأنصار وهجموا عليهم صائحين ومهللين ومكبرين غير مبالين بالموت بل تسابقوا عليه للفوز بالشهادة وكانت النتيجة فناءها عن بكرة أبيها . وازدحمت الدروب الى قدير وانتشرت أخبار هذا النصر المبين في فجر ٧ يونيه سنة ١٨٨٢ في أرجاء السودان ولم يبق شك في أذهان المتشككين بأنه المهدي المنتظر وكان الجو الديني في السودان مهيئاً لقبول فكرة المهدي المنتظر فهم قد تعودوا على اتباع مشايخ الطرق الصوفية ويعطون وزناً كبيراً للكرامات وخوارق العادات ومخالفة الولي الصالح لا تضرهم في آخرتهم فحسب بل في دنياهم ، وهذا هو المهدي الذي ينتظره العالم الاسلامي لاحياء السنة والكتاب بعد ان اندرست معالمها وها هو يقولها صريحة بأن من شك في مهديته فقد كفر وأيد ذلك بانتصارات رائعة على جنود الحكومة الرهيبة بأسلحتها النارية الفتاكة وأنصاره لا زالوا يحملون السيف والحربة والفأس وحتى العصى العادية ومهما بالغنا في سوء الحالة من فداحة الضرائب وتحجيرات الرق ومظالم الحكام فان الدافع الأول والذي قاد المهدي وسيقوده لانتصاراته هو هذا القبس الروحي الذي يستصغر الدنيا الفانية ويهدف الى الفوز بنعيم الآخرة .

وصل عبد القادر باشا الخرطوم في أوائل مايو سنة ١٨٨٢ وحملة الشلالي في طريقها نحو قدير وقبل ان يتلقى أنباء فنائها بدأ بتدريب جنود حامية الخرطوم وألف كراسة فيها هذه التدريبات والتعليمات العسكرية الضرورية

وحسب ما عرف عن تجهيز حملة الشلالي فقد كان مطمئناً على انها ستؤدي مهمتها وتقضي على المهدية « ومأمول ان شاء الله الحصول على الغرض المقصود وبعد زمن قريب منظور حضور البوستة بالأخبار المبشرة بالظفر والنجاح ». وفي نفس هذه الرسالة يقول « وقد زال عن خواطر العامة بل والعساكر ما كانوا يتوهمونه من الخرافات التي ألقيت اليهم بواسطة المفسدين وحصل من الأهالي الاذعان للطاعة وطلب الأمان ومن العساكر البسالة والاقدام وبمنه تعالى ونفوس الحضرة الخديوية قريباً يصير إزالة ومحو أثر ما هو حاصل من المفسدين وتقرير الأمن والراحة بين كافة الأهالي لهذه الجهات ويعودوا للتوطن والعمارية والله ولي التوفيق أفندم ».

حرب الدعاية :

بعد انقراض حملة الشلالي في يونيو ندخل في موسم الأمطار وتوقف العمليات الحربية ويبدأ عبد القادر باشا يبث حرب الدعاية ويحشد العلماء ليكتبوا الرسائل في تكذيب دعوى المهدية بلغة الكتب التي لا يفهمها جمهور السودانيين ركز العلماء دعايتهم على ضرورة طاعة ولي الامر وبينوا ان الأوصاف التي وردت في الأحاديث عن المهدي المنتظر لا تنطبق على محمد أحمد والا ضرورة لقيام المهدية لأن الأرض لم تملأ جوراً وظلماً وان الجميع يرتعون في بحبوحة الأمن والسلم تحت رعاية أفندينا الخديوي والناظر والحكمدار عبد للقادر باشا وان الجميع يدينون بالولاء والطاعة لسلطان المسلمين الذي يخطب باسمه في المساجد وحذروا المسلمين من الضلالة بعد الهدى وحرضوهم على أشد ازر الحكومة ومعاونتها في القضاء على تلك الحركة .

والمهدي في منشوراته وخطاباته أكد « تغير الزمن وترك السنين ولا يرضى بذلك ذو الايمان والفطن بل أحق ان يترك لذلك الأوطار والوطن لاقامة الدين والسنن » . فهو قد أتى لتطهير الفساد وإقامة العدل والدين وأنه مأمور

من الله وأخبره سيد الوجود بالخلافة الكبرى والمهدية العظمى وان من خالفه فقد كفر وذكر مسنداً عن «الشيخ محيي الدين بن عربي في تفسيره على القرآن العظيم علم المهدي كعلم الساعة والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة الا الله» ويروى عن الشيخ أحمد بن ادريس أنه قال « كذبت في المهدي أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله ثم قال يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونه» ثم يمضي ويقول « وهذا لا يخفى عليكم ان التأليفات الواردة في المهدي ومنها الآثار وكشف الأولياء وغير ذلك فيختلف كل منها كما علمت من أنه الله ما يشاء الآية وفيها الأحاديث فمنها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح والصحيح ينسخ بعضه بعضاً كما ان الآيات تنسخها الآيات وحقيقة ذلك على مـــا هي عليه لا يعرفها الا أهل المشاهدة والبصائر » ومن تلك المقتطفات نستطيع ان نتبين انــه يرد على الذين قرأوا أخبار المهدي المنتظر بتفصيلات محددة عن هيئته ومكان ظهوره ووقته بأن الله يفعل ما يشاء ويختار وفوق كل ذلك يقول ما يقول مؤيداً بانتصاراتــه الرائعة .

السودان والسياسة الانجليزية :

وفي مصر جرت الحوادث منذ يوليو سنة ١٨٨٢ الى نهايتها بأن احتل الانجليز مصر وسيطروا على كل شيء فيها وكانت حكومة الأحرار بزعـامة جلادستون لا تنوي التدخـــل في أحداث السودان ولا تود ان تضيف الى اشكالاتها أشكالاً آخر وفي ذلك الوقت ما كانت تنوي البقاء في مصر طويلاً فاذا ما عززت سلطة الخديوي وأجرى اصلاحات ضرورية فمصلحتهـا آنذاك تقتضي رحيلها لا تحمل مسئوليـات بلاد مفلسة نتيجة سياسة اسماعيل ولا حاجة لها بأسواق أو مواد خام لأن منتجاتها تجد لها سوقـــاً رائجة في كل أنحاء العالم والمواد الخام العالمية تحت تصرفهـا وأسطولها سيد البحار ولم تظهر بوادر التسابق الاستعماري بعد فاذا كانت هذه نظرتهـــا لمصر فان مسألة

السودان فرعية للخديوي وحكومته ان يعالجانها بطرقهما الخاصة . وما كانت هذه السياسة مستوحاة من حبها للحرية في كل مكان بل ان مصلحتها آنذاك تقتضي ذلك . واكتفوا آنذاك بأن يبعثوا بضابط انجليزي يدعى ستيوارت لتقصي الحقائق فحضر للخرطوم في نوفمبر سنة ١٨٨٢ وبقي أشهراً وقدم تقريره بعدها .

الزحف على الابيض :

والآن نعود الى المهدي في قدير بعد ان انتصر على الشلالي وعلى راشد قبله وبعد ان تقاطرت عليه الأفواج من مديريات كردفان ودارفور والجزيرة لتنخرط في سلك الأنصار وكانت سياسته الى ذلك الوقت دفاعية ولكنه بعد ان قوي ساعده بدأ في سياسة هجومية يقوم بها دعاته في كردفان ودارفور والجزيرة ويسير هو بنفسه مع حشد كبير من أنصاره نحو الابيض عاصمة كردفان فاسقط انصاره ومندوبه الحاميات في كردفان ودرافور ووصل هو بقواته الى الأبيض وكانت تحرسها حامية صغيرة نسبياً قوامها الجهادية السود تقبع وراء تحصينـــات قوية ويعتمل في نفوس أفرادها أصرار على ان يدافعوا ويستميتوا ، وعندما شارفت قواته الأبيض خرج اليه عدد من وجهاء المدينة أمثال الياس باشا امبرير وحاج خالد العمراني ومحمد باشا إمام وجورج اصطمبولية وبقي داخل الاستحكامات مواليـــاً للحكومة أحمد بك دفع الله من كبار الجعليين وقد سقط أخوه عبدالله دفع الله قبل ذلك في حملة الشلالي على رأس قوة من المتطوعين موالية للحكومة .

ولم يطق الأنصار صبراً وهم يرون أمامهم قوات الحكومة التي خرجـوا عن طاعتها ويريدون نصرة الدين تحت ظل راية المهدية وبعد إصرار منهم سمح لهم المهدي بالهجوم على الاستحكامات بأسلحتهم التقليدية لأن الاسلحة النارية التي غنموها في الوقائع السابقة تركوها في جبال الكواليب بجبـــال النوبة . وصمدت لهم الحامية وردت هجوماً بعد آخر إلى أن استشهد الآلاف

أمام الاستحكامات وبعدها تراجع الأنصار حيث امتنعت عليهم التحصينات وشددوا الحصار عليها . ووصلت أنباء استبسال حامية الابيض للخرطوم وطلب عبد القادر باشا الامدادات لفك الحصار عنها وعن حامية بارة شمالها .

ولم تكن الحكومة المصرية تمتلك جيشاً آنذاك لان الاحتلال الانجليزي قضى على جيش عرابي وسرّحه وبدأت الدولة المحتلة في إنشاء جيش مصري جديد بتدريب ضباط انجليز وهم ليست لهم مصلحة آنذاك للمغامرة بجيش انجليزي أو هندي وليس أمام الحكومة المصرية الا ان تجمع فلول جيش عرابي من قراهم وتنظيمهم في حملة تبعث بها للسودان وطلبت ضباطاً انجليز في الخدمة ينتدبون للعمل في هذه الحملة وخاصة في رئاسة أركان حرب الحملة ورفض الانجليز الطلب ولكنهم لا يمانعون في ان تستخدم مصر ضابطاً أو ضباطاً في الاستيداع او المعاش وعينوا هكس رئيس أركان حرب لتلك القوة على أن يكون الخبير الفني لها ورئاستها لضابط مصري لان الثورة في السودان ترتكز على أساس ديني . ووضح منذ البداية ان هؤلاء الجنود لا يجدون هدفاً يحاربون من أجله فانجلترا تحتل بلادهم بعد أن تغلبت عليهم ويطلب منهم الآن الذهاب الى مجاهل افريقيا ليحاربوا شخصاً صاحب رسالة دينية ينتظرها العالم الاسلامي وهم منه . فلا غرابة اذا ما دار في أذهانهم أنه قصد الخلاص منهم ولا غرابة اذا ما وضع بعضهم في السلاسل وأرسل الى السويس لتنقلهم البواخر الى ميناء سواكن .

عبد القادر باشا في الجزيرة :

وغندما تجمعت منهم قوات كافية في الخرطوم قادهم عبد القادر باشابنفسه لجزيرة حيث شبت الثورات هناك فأحمد المكاشفي في سنار وود الصليحابي في الجبلين وفضل الله ودكريف في نواحي الكوة ومعتوق والحاج أحمد عبد

الغفار وغيرهم . ونجح عبد القادر في إعادة الامن والسلام في ربوع الجزيرة ولكن حكومة الخديوي استدعته بياور خاص حمل له النبأ وتعيين علاءالدين باشا مكانه وأوكلت قيادة حملة كردفان لسليمان نيازي باشا وهكس رئيساً لاركان حربها وله النواحي الفنية في ادارة العمليات الحربية وحتى ستيوارت الذي كان في الخرطوم آنذاك لانه شاهد بنفسه نجاح عبد القادر في عملياته الحربية دهش لهذا الاستدعاء ولعلهم استدعوه لانه كان في الوزارة العرابية قبل مجيئه للخرطوم ولم يتبين لنا السبب لاستدعائه ولا سيما أنه في ديسمبر من سنة ١٨٨٢ طلب النزول ورفض الخديوي طلبه .

سقوط الابيض وباره :

ولنرجع للأبيض وقد تركناها محاصرة من قبل قوات المهدي بعد أن ردت هجومهم بخسائر فادحة للأنصار ولكن في ديسمبر سنة ١٨٨٢ تمكن محمد سعيد باشا قائد الحامية ومدير الغرب من مخاطبةعبد القادر باشا وصور له جموع المهدي التي بلغت المائة ألف نفس وما معها من الاسلحة النارية التي غنموها وأحضروها من جبال الكواليب وبين له صعوبة المقاومة حيث انعدمت الاغذيةللعساكر فلم يتركوا حيواناً أو حبة من الغلال إلا استهلكوه. واستهلكوها وشاركوا النملفي مخازنه الارضية وسطوا عليها ولاحقوا الفيران في أحجارها وقبضوا عليها وما تركوا جلداً أو عرقا لنبات وعندما اشتد الضيق على الحامية ودخل الشتاء رأى قادتها المفاوضة مع المهدى والتسليم صلحا وتم ذلك في ١٩ يناير سنة ١٧٨٣ وأبقى على حياة القادة والزعماء ولكن المهدي اكتشف خطاباً سرياً أرسلوه للخرطوم وحكم عليهم بالاعدام نتيجة لذلك .

حملة هكس :

وتجمعت القوة في الخرطوم وحضر قائدها سليمان نيازي ورئيس أركان

حربها هكس وعلاء الدين باشا الحكمدار واختلف هكس مع نيـازي وبعد مكاتبات عدة وشكاوى من هكس وتهديد بالاستقالة خضعت لـه الحكومة المصرية وعينته قائداً للحملة ونقلت سليمان نيازي حكمداراً لشرق السودان وبعد موسم الأمطار من سنة ١٨٨٣ تحركت الحملة التي بلغت ١٢ ألفاً بكامل معداتها ومعها آلاف الجمال نحو الدويم ومنها فارقت النيل واتجهت غرباً نحو هدفها الأبيض . ودب الخلاف بين الرءوس منذ البداية فتارة على وقت المسير وارتياد المناهل وطوراً على الطريق وطول المرحلة وطوراً على من المسئول عن تحركات الجيش واعطاء الاوامر أهو الجنرال هكس ؟ أو الضابط السياسي علاء الدين باشا ؟ أم اكبر الضباط الوطنيين حسين مظهر باشا ؟أم رئيس أركان الحرب فركار ؟ ومشاكل المياه تتجدد يومياً . هل الآبار تكفي لسقاية الجيش أم لا بد من البرك؟ وهل يتحرك الجيش بكامله ام لا بد من فرقة استكشافية؟ كل ذلك والانصار يظهرون أفراداً وجماعات يطلقون بعض الأعيرة النارية ثم يختفون والسكان غرب الدويم يتنحون عن الطريق ويحملون مـا أمكنهم حمله من القرية وما بقي يتركونه أكواماً من الرمـاد . ولم يلقهم ولا سوداني واحد يحمل رسالة للخرطوم أو يرضى ان يكون حلقة اتصال بين مواطنهم والنيل ولو رضي واحد بذلك ربما يتجه للمهدي بالرسالة بدلاً من الخرطوم . وكلما ازدادوا إيغالاً الى الغرب زادت المشاكل وتفاقمت الخلافـات وانحطت الروح المعنوية وازدادت شدة المقـاومة . فبعد ان كان الانصار يظهرون في جماعات صغيرة حضرت الآن قوات من قبل المهدي تحت قيادة الامير عمر بن الياس باشا امبرير والحاج محمد عثمان أبو قرجة وكانت مهمتهـا تنحصر في الازعاج والمناوشة لا الملاقاة والحرب .

وعندمـا قاربت القوة الأبيض بمراحل قليلة وجه المهدي انذاره الاخير للجنود فأملى منشوراً على الكاتبين كتبت منه نحو السبعة آلاف نسخة وحملها الخيالة ووضعوها في طريق التجريدة على فروع الأشجار وقد نجح بعض الجند

في التقاطها ولكنها جمعت وحرقت وورد في هذا المنشور ما يلي : « من الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدي بن السيد عبدالله الى من يسمع من أهل الجردة ممن له عقل . فانه لا يخفى على كل ذي عقل ان الأمر بيد الله ولا يشركه في ذلك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمة لأحد الا لمن عصمه الله فاذا فهمتم ذلك فاعلموا ان الله واحد ولا تغترون بأسلحتكم ولا بجموعكم التي تريدون ان تقاتلوا بها جنود الله فانه لا قوة لشيء دون الله . وان قلتم ان مهديتنا مكذوبة فاعلموا ان التكذيب انما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف من المخلوق ويستعجز قدرة الله . فاذا فهمتم ذلك فلا يغرنكم أقوال علمائكم فان الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل وقالوا يا إلهنا ومولانا المهدي قتلنا من غير إنذار فأقول أنذرتهم يا رب وحضر على ذلك شاهد سيد الوجود ﷺ وقال لهم الإمام المهدي أنذركم فلم تسمعوا له وسمعتم اقوال علمائكم فذنبكم عليكم ... » .

موقعة شيكان :

اقترب الجيش من نهايته المحتومة بعد سريان الملل والسأم في نفوس الجند واعتراهم يأس غريب قبل الالتحام في المعركة الفاصلة ونفوس القواد لا زالت متنافرة وأخبار المهدي وعدده في طي الغيب . وتحرك المهدي بقواته وانخرط في سلك الأنصار اولئك الجهادية السود الذين سلموا في حامية الابيض وتقدموا أمام جيش المهدي حيث كانوا يختفون وراء الأشجار ويطلقون أعيرتهم النارية على الجيش الزاحف في مرحلته الأخيرة ليلاً ونهاراً . ومن مضحكات الأقدار ان هذه الحملة ما جهزت الا لفك الحصار عن الأبيض وانقاذ هؤلاء الجهادية وانعكس الوضع ولاقاهم هؤلاء في مقدمة صفوف الانصار . وفي غابة شيكان أحاطت الآلاف العديدة من انصار المهدي بجيش هكس وصدرت الاشارة بالهجوم وتقدم الفرسان غير عابئين بالرصاص واخترقوا المربع ودارت المعركة بالسلاح الابيض وأبيدت حملة

هكس عن آخرها سوى البعض الذين اختفوا وسط جثث القتلى وكان تاريخ هذه الموقعة يوم ٤ نوفمبر وفي بعض الروايات يوم ٥ منه سنة ١٨٨٣ .ولكن لم تتأيد اخبار الواقعة والابادة إلا حوالي يوم ٢١ من نوفمبر وحـــدث هلع واضطراب في الخرطوم ولاول مرة تنبهت انجلترا لخطورة الموقف ولا سيما أن هذه الحملة يقودها ضابط إنجليزي وبدأت الصحف الانجليزية تظهر أنباء السودان بعناوين ظاهرة وكانت أخباره مثار جدل ومناقشـــة واستجوابات واسئلة في البرلمان الانجليزي .

سياسة الانسحاب :

واستسلمت دارفور وقطع عثمان دقنة طريق بربر سواكن واحتل سنـــكات وطوكر ولكن سواكن امتنعت عليه وبذلك أدى مهمة جلى للمهدية حيث صعب على الحكومة المصرية او الانجليزية ارسال نجدات لداخل السودان عن طريق سواكن . وتبين لانجلترا أنها لا تستطيــع الاستمرار في سياسة عــدم التدخل في المسألة السودانية وأن مصر لو تركت لمواردها المالية وقوتهـــا العسكرية ليس في استطاعتها ارسال حملة أخرى وانجلترا لا زالت في اصرارها على عدم ارسال جنود إنجليزية أو هندية ولم يبق إلا أن تنفض مصر يدهــا من السودان وتنسحب منه . ولكن وزارة شريف ترفض تلك السياســـة وتحاول بكل وسيلة اقناع انجلترا بالتدخل أو بطلب نجدات تركية . وعندما تأكد بيرنج بأن الشعور العام عند الجمهور المصري لا يؤيد الطبقة الحــاكمة في مصر في التمسك بالسودان أبدت الحكومة الانجليزية نصيحتها في قالب أمر بأنه لا مفر لمصر من الانسحاب وأنه طالما ظل الاحتلال الانجليزي لمصر قائماً فان الحكومة الانجليزية عندما تصر على انتهاج سياسة خاصة بعـــد سماع وجهات النظر المصرية لا بد لكل حكومة مصرية الخضوع لهـــذه النصيحة والوزير الذي لا يتعاون لا مفر له من اخلاء كرسيه لغيره .

آراء غوردون قبل البعثة :

وفي ٧ يناير قدم الشريف باشا استقالته وفي اليوم التالي قبل نوبار باشا رئاسة الوزارة على أساس قبوله سياسة اخلاء السودان . وفي انجلترا بدأ اسم غوردن يلمع بمناسبة الشخصية التي يراد لها تنفذ سياسة الاخلاء وسحب الحاميات المصرية والموظفين من السودان وبعد مكاتبات مع القاهرة واعتراضات من بيرنج ونوبار لتعيين غوردون لتنفيذ سياسة الاخلاء رضخا في آخر الامر لأن الرأي العام الانجليزي وكبار المسئولين في لندن يرون ان اصلح من يقوم بهذه المهمة هو غوردون . وفي نفس اليوم الذي تولى فيه نوبار رئاسة الوزارة على أساس الاخلاء كان محرر البول مول جازيت الانجليزية يتحدث الى غوردون وكان رأيه آنذاك أن اخلاء كردفان ودارفور امر لا مناص منه ولكن الاحتفاظ بالاقاليم التي تقع شرق النيل الابيض امر تحتمه الضرورة وان نار الثورة سوف تلتهب بسرعة وتنتشر بسرعة البرق فيما لو اخلي السودان وسوف تتطاير منها شرارات عبر البحر الاحمر لتشتعل في الجزيرة العربية وشمالاً في صعيد مصر. واشار الى صعوبة تنفيذ الاخلاء من حيث وجود الجمال اللازمة للترحيل ولذلك يرى غوردون في ذلك اليوم ان هناك طريقان عمليان. أما التسليم للمهدي وأما الدفاع عن الخرطوم وهذا الاخير ما يجب اتباعه . وفي رأي غوردون ان الثورة لم تكن دينية بل في أساسها مناهضة للنظام التركي – الشركسي وأن الدين ما هو الا غشاء خارجي لهـا والقائم بأمر الدعوة في رأي غوردون ما هو إلا آلة مسخرة في يد الياس باشا امبرير وملاك الرقيق في الأبيض .

مما تقدم يتضح لنا أن رأي غوردون الشخصي هو صعوبة الاخلاء وأن الاحتفاظ بشرق النيل الابيض امر لا بد منه ومع ذلك قبل ان يعين لتنفيذ سياسة الاخلاء وقبل المهمة . وسوء فهمه لجذور الثورة الدينية جعله يعتقد ان المهدي سيقبل بصدر رحب ان يعين ملكا على كردفان ودارفور وبقية

السودان يحتفظ بها ولكن تحت إشراف ادارة سودانية خالية من الاتراك والشراكسة . ويمثل هذه السهولة قبل المهمة وبدأ بتخطيط سياسته على هذا الأساس منذ ان غادر محطة جيرنج كروس في لندن متوجهاً الى مصر ومنها للسودان . وبدلاً من ان يترك امر خطة التنفيذ الى حين وصوله الى الخرطوم وإلى حين دراسته للحالة عن كثب وضع خطته كاملة قبل وصول الخرطوم وفي صبيحة وصوله ابرق بها متكاملة مبنية على مفهوم خاطىء لدوافع الثورة وعلى ان الحكومة الانجليزية ستوافق على تعيين الزبير باشا لحكم بقية الإقليم عندما يعين المهدي ملكاً على كردفان ودارفور .

سياسة غوردون :

ولم يبق في الخرطوم الا وقتاً قصيراً لا يتعدى الاسبوعين حتى وضح له جلياً ان مفهومه عن الثورة خاطىء وان الحكومة الإنجليزية لا تسمح للزبير بالرجوع للسودان وهو في عرفهم اكبر تاجر للرقيق . وصعوبة تنفيذ سياسة الاخلاء هذه التي نادى بها غوردون نفسه في حديثه مع محرر الجريدة يؤيدها اكبر ثقة في مشاكل الترحيل وهو حسين باشا خليفة العبادي مدير بربر وهو زعيم العبابدة الذين يحتكرون آنذاك الترحيل عن طريق عتمور أبو حمد ففي خطاب وجهه للخديوي يقول : « أما القول بترحيل أهالي الخرطوم لبحري وترك تلك المدينة الحصينة يترتب منه خراب السودان بأكمله فضلا عن عدم تمكن احد من العساكر والاهالي من الوصول الى بحري لأوجه . الاول انه بمجرد قيامهم من الخرطوم تهيج الاهالي والعربان معاً ويكونوا يد واحدة ويمسكوا المواشي والطرق ومحلات الشلالات ويمنعوا مرور المراكب بالبحر والوصول الى بربر . والثاني لو فرض وأمكنهم الوصول فلا توجد جمال للترحيل من طريق أبو حمد بما ان الجمال هي من العربان والحالة هذه جميعهم بالمتاريس وجارين اللازم لدخولهم تحت الطاعة وعندما يبلغهم قيام الاهالي وخلافهم من الخرطوم يزدادوا نفوراً وهيجان ولا يوجد جمل واحد للترحيل وربما يقطعوا

طريق ابو حمد . ومع تراكم اهالي ومستخدمين الخرطوم ببربر مع الموجودين بها فلا يجدوا شيء للقوت الضروري وتهلك الرعية وعلى كل فقيـــام أهالي الخرطوم غير صائب ومـــا عندنا من النصيحة بحسب الصدق والامانة أوضحناه » .

وقبل وصول غوردون ايضاً كتب الشيخ العبيد محمد بدر وهو ولي صالح ذو نظر ثاقب يقطن جنوبي الخرطوم وشرق النيل الازرق في قريته أم ضبان الى العلماء في الخرطوم يطلب منهم التوسط لتسليم الخرطوم صلحـاً للمهدي ونقلت الحكمدارية هذا الرأي في ٢٧ يناير سنة ١٨٨٤ بما نصه : « يوم تاريخه حضر جواب من الشيخ العبيد المقيم بجهة العليفون الى العلمـاء بالخرطوم وهو الشريف حسين المجدي قاضي الخرطوم والفقيه عبد القـادر قاضي الكلاكلة والفقيه موسى مفتي المجلس المحلي تاريخه ٢٤ ربيع اول يفيد انـه كان متصبر للآن انتظار تسليم الخرطوم للمهدي من دون سفك دمـــاء المسلمين وأموالهم وان جميع البلاد حصلت بها الحركات ويطلب منهم الإجابة بالقبول بعدالاتفاق معنا او رفض طلبه وحيث ان ذلك مما يقتضي العرض عنه للأعتـاب السنية فبناء عليه لزم العرض للاحاطة » وجاء الرد من القاهرة في نفس اليوم برفض طلب الشيخ العبيد لانـــه في ذلك الحين تأكد تعيين غوردون لتنفيذ سياسة الاخلاء . وانهيار الركن الثاني الذي بنى غوردون عليه مشروعه وهو تعيين المهدي ملكاً على كردفان ودارفور .

وكان غوردون وهو في طريقه من مصر للسودان من بربر بعث بكسوة شرف للمهدي معلناً اياه بأنه اصبح ملكاً لكردفان ويرجوه توطيد العلاقات بينه وبين الحكومات الاخرى فيالسودان وبذا لتنتهي الحرب القائمة ولاعتقاده الجازم على موافقة المهدي لهذا العرض السخي في نظره اعلن للأهـــالي في بربر عزم الحكومـــة على الاخلاء وتعيين سلالة السلاطين والملوك الاقدمين على ما كانوا يحكمونه من أقـــاليم وشعوب . ولم يستعجل المهدي في

رده وترك غوردون يصل الخرطوم ويتصل بحكومته عن طريق معتمدهـا بيرنج في القاهرة عن تعيين الزبير باشا حاكماً يخلفه في الخرطوم كسلطة مركزية للحكومة الاقليمية التي لا بد ان تقام في بقية السودان وبدأ انصار المهدي في الجزيرة وشرقها يناوشون الخرطوم ووضح له جلياً ان الحكومة الانجليزية تعترض على ارسال الزبير وان مفهومه عن الناحية الدينية للثورة كان خاطئا وقطع الانصار خطوط التلغراف واضطر هو لتقوية تحصينات الخرطوم التي باشر فيها العمل من قبله عبد القادر باشا .

رد المهدي على عروض غوردون :

وفي صبيحة ٢٢ مارس سنة ١٨٨٤ ظهر على استحكامات الخرطوم ثلاثة من الانصار في كامل اهبتهم وسلاحهم يحملون خطاباً موجهاً لغوردون وربطة بها ملابس وطلبوا مقابلة غوردون ورفضوا تسليم اسلحتهم ولم يتمكنوا من دخول الاستحكامات لمقابلة غوردون بهذه الحالة إلا بعد ان سمح غوردون نفسه لهم وقدموا الخطاب وربطة الملابس ؛ وملخص الخطاب ان المهدي لم يرد ملكاً او سلطانا وما طلب من مخلوق منة او مكرمة وانما بعث برسالة المهدية الكبرى لهداية الخلق واذا كان غوردون يريد بالمسلمين خيراً كما يزعم فأولى له ان يستضيء قلبه أولا بنور الاسلام وعند ذلك ينال خير الدارين وفي ربطة الملابس جبة التشريفة التي بعث بها غوردون ومعها جبة الانصار ليلبسها غوردون ان هو استضاء قلبه بنور الاسلام وقبل الدخول في الملة المحمدية وتبين له بعد ان احس بذلك قبلا أن مفهومه عن دوافع الثورة كان خاطئاً . وكان غوردون متعصباً لمسيحيته ويعتبر نفسه قديساً فيها ولذلك اصابته نوبة من الغضب الشديد . فاذا كان المهدي متديناً في اسلامه فهو مؤمن بمسيحيته . وأخذها غوردون منذ تلك اللحظة على انها نضال شخصي ومبارزة القى له فيها القفاز فليلتقطه . ومن ذلك التاريخ نستطيع ان

نجزم بأن عنصر التعصب الديني دخل في النضال بعد ان تبين له صعوبة الاخلاء من قبل .

الحوادث في شرق السودان :

تركنا عثمان دقنة يستولي على سنكات وطوكر ويقطع طريق سواكن بربر واستعصت عليه سواكن . وعندما تأيدت هزيمة هكس في كردفان جمعت الحكومة المصرية جيشاً من الجندرمة خليطاً من اجناس مختلفة، بينهم الارمن واليونان وغيرهم وعقدت لواءها لبيكر باشا قائد الجندرمة ليفتح طريق بربر سواكن وانقاذ حامیتي طوكر وسنكات . ولكن عندما علمت الحكومة بسياسة الاخلاء عدّلت تعليماته بحذف مهمة فتح طريق بربر - سواكن وعهد اليه بانقاذ الحاميتين . ووصلت القوة الى مرفأ ترنكتات جنوبي سواكن وتقدمت نحو طوكر وما أن شاهدوا رايات الأنصار في آبار التيب حتى اختل نظام الجند وصاروا يطلقون الرصاص دون هدف وانعقدت سحب الدخان وهجم الأنصار وتراجع الذين كانوا في المقدمة الى داخل المربع وزادوا في الاضطراب وكانت هزيمة لجند بيكر . وتركوا موتاهم وجرحاهم في ميدان المعركة وفر الباقون وعلى رأسهم بيكر نفسه الى البحر ورجعوا بمراكبهم لسواكن وكان هذا في الأسبوع الأول من فبراير سنة ١٨٨٤ عندما كان غوردون في طريقه الى مصر لتنفيذ سياسة الاخلاء وأثارت هذه الهزيمة الرأي العام الانجليزي لأن قائد القوة كان انجليزيا مثلما كان هكس .

وتحت ضغط ثائرة الرأي العام جهزت الحكومة الانجليزية حملة عمادها أربعة آلاف جندي انجليزي تحت قيادة الجنرال جراهام وليس لها من غرض سوى تأديب العربان ، والتحم الجيش الانجليزي مع قوات عثمان دقنة في معركتين وقتل الألوف منهم دون أن يخدم غرضاً . حدث هذا بينما كان غوردون في طريقه للخرطوم لمهمته السلمية ،وبينما أرسل غوردون كسوة

الشريفة من بربر للمهدي وعيّنه ملكاً للغرب ، كان الجنود الانجليز يقتلون أنصاره في السودان الشرقي . وظهر هذا التناقض والاضطراب في السياسة الانجليزية .

وغوردون في الخرطوم وضحت له الأمور ولم يمض عليه سوى أسبوع واحد في الخرطوم . فالمهدي أهمل اقتراحاته حيناً من الوقت ، وعندما بعث ردّه كان الحصار بدأ فعلاً على الخرطوم وأنصاره في الجزيرة وشرقها بدأو يناوشون العاصمة والمكاتبات بشأن ارسال الزبير بين القاهرة والخرطوم ولندن لم تأت بنتيجة ما . وأخيراً عندما وصل الرفض النهائي تحت ضغط جمعية محاربة الرق واصرار نواب الأحرار انفسهم بخذلان حكومتهم في البرلمان، كان تنفيذ سياسة الاخلاء أمراً مستحيلاً . وحتى هذه الرسالة التي حملت اصرار الحكومة الانجليزية على رفض ذهاب الزبير للسودان لم يتسلمها غوردون في حينها لان خط التلغراف قطع حوالي ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م.

الفصل الرابع

المرحلة الثانية للثورة المهدية

لم يشأ المهدي ان يتقدم للخرطوم بعد إبادة حملة هكس ولكنه بقي بالأبيض ليتلقى مزيداً من الأتباع والمريدين وترك لعثمان دقنة في شرق السودان تشديد الحصار على ميناء سواكن وليمنع منعاً باتاً اي اتصال بين البحر في سواكن والنيل في بربر ولا بد من قطع طريق الشمال حتى تعزل الخرطوم عزلاً تاماً . وفي منتصف مارس سنة ١٨٨٤ تمكن الشيخ العبيد ودبدر وود البصير من سد كل الطرق البرية المؤدية للخرطوم وأصبح تموين العاصمة من الغلال وغيرها يصلها بالنيل بالوابورات والمراكب وحتى هذه تلقى صعوبة في اختراق الحصار المضروب عليها. وصارت الجنود تخرج من استحكاماتها من آونة لأخرى لتشتبك مع الانصار المحاصرين لهم وفي أغلبها يتقهقرون مدحورين وعرف بما لا يدع مجالاً للشك في ان غوردون وحامية الخرطوم بمن فيها أصبحوا في حاجة للانقاذ وبقوة عسكرية كبيرة ولكن الحكومة البريطانية ما زالت عند سياستها بأن مهمة غوردون سلمية وهي سحب الحامية المصرية والمدنيين من مصريين وأجانب .

السودان في مجلس العموم البريطاني :

وعقد مجلس العموم البريطاني جلسة في ٣ أبريل سنة ١٨٨٤ ليناقش الموقف في الخرطوم ومهمة غوردون وذلك عقب رسالة ظهرت في جريدة التايمز اللندنية من مراسلها في الخرطوم فرانك بور التي ناشد فيها الأمة البريطانية الا تتركهم يحاصرون في الخرطوم . ودخل مستر جلادستون المجلس بعد غيبة طويلة ظل فيها ملازماً لفراش المرض ليرد على سؤال تقدم به زعيم المعارضة عن مسألة السودان . وجه المستر جلادستون هجومه على المعارضة بأنها تعرقل أعمال الدولة بتوافه الأمور ووضح ان مهمة غوردون كا تفهمها الحكومة هي تقديم تقرير عن أنجع الطرق للانسحاب من السودان وهذه مهمة استشارية بحتة واوكلت اليه الحكومة المصرية مهمة تنفيذية بأنعينته حاكا عاما بسلطات استثنائية لاخلاء السودان فالعقبات التي اعترضته وهو يؤدي مهمته التنفيذية لا تقع مسؤوليتها على عاتق الحكومة البريطانية . وقام بعده وزير الحربية اللورد هارتنجتون فوضح للمجلس المخاطر الحربية التي يتعرض لها الجيش الانجليزي ان هو حاول القيام بحركة زحف من سواكن إلى بربر وكذلك عدم ملاءمة هذا الفصل بالذات في أرض يشتد حرها كالسودان . وكل ما قامت به الحكومة بعد ذلك هو انها طلبت من بيرنج في ٢٣ ابريل ان يطلب من غوردون تقريراً عن الحالة ودرجة الخطر ومقدار القوة الكافية لانقاذه والطريق الذي تتخذه للوصول اليه واوضحوا أن مهمة أي حملة تذهب للسودان تنحصر في انقاذه فقط . ولكن هذهالرسالة وصلت الى غوردون بعد ثلاثة أشهر لصعوبة الاتصال به .

تشديد الحصار على الخرطوم :

تلت ذلك فترة تقارب الثلاثة أشهر غاب فيها بيرنج عن القاهرة ليكون

يجانب الحكومة في لندن عند النظر في الشئون المالية المصرية وما زالت مسألة إنقاذ غوردون تعرض من وقت لآخر في الجرائد والبرلمان والحكومة تنتظر البيانات والتفصيلات حتى تقرر على ضوئها . وفي هذه الفترة سقطت بربر وتم لذلك إحكام الحصار على الخرطوم وعزلها عزلاً تاماً عن العالم الخارجي والمهدي لا زال في الأبيض وبعث بالحاج محمد أبو قرجة وسماه أميراً للبرين والبحرين ليزيد في قوة أنصاره المحاصرين للمدينة . وقامت حامية الخرطوم بنشاط غير عادي حيث زحزحت الأنصار بعيداً عن الاستحكامات وارسل غوردون محمد علي باشا ليهاجم الشيخ العبيد وديدر في مقره في أم ضبان وفي ملاقاة مع الأنصار في العيلفون على النيل انتصر عليهم وتقدم شرقاً لأم ضبان ولكنه دخل في كمين نصبه له الأنصار وأبادوا الحملة . ورأى غوردون أن يبعث بمساعده ستيوارت في وابور إلى مصر ليحمل تفصيلات الحالة ويبلغها للمسئولين في مصر وانجلترا ونجحت باخرته في ان تتجاوز بربر ولكن المناصير خدعوه ومن معه اذ خرجوا من الباخرة وقتلوهم وهكذا فشلت جهود غوردون في الاتصال بمصر وفي الخروج من الاستحكامات لملاقاة الأنصار خارجها .

حملة انقاذ غوردون :

وفي أواخر يوليو سنة ١٨٨٤ هدد وزير الحربية بالاستقالة وسانده بعض زملائه في الوزارة اذا لم تتخذ الحكومة قراراً بارسال حملة لانقاذ غوردون . وخضع جلادستون وطلب تصديقا مالياً من البرلمان لتجهيز الحملة اذا دعت الضرورة لذلك . وبدأ الفنيون العسكريون يدرسون النواحي المختلفة لتجهيز هذه الحملة .وكانت أول نقطة في هذا الصدد أثارت الجدل هي الطريق الذي تتخذه الحملة للوصول الى الخرطوم . هل طريق النيل أم طريق سواكن بربر ؟ وتقرر اتخاذ طريق النيل لأن اللورد ولسلي اقترح صنع قوارب خاصة تسير فوق الشلالات لأنها جربت في مثل هذه الأحوال من قبل ولأن مسير الحملة

الانجليزية على صعيد مصر سيخدم غرضا اخر وهو عرض القوة الانجليزية على الأهلين هناك حيث تأكدت المخابرات البريطانية من وجود حماس لجانب المهدي ومعاد للانجليز .

أمير الامراء يتحرك للخرطوم ويعقبه الامام المهدي :

وفي الطرف الآخر تحرك امير الامراء عبد الرحمن النجومي من كردفان كطليعة لقوات المهدي الرئيسية نحو الخرطوم ليحكم الحصار عليها . وبعده احتشدت جموع المهدي في الرهد لكثرة المياه وصدرت اشارته بالزحف نحو الخرطوم متحديا قوة الامبراطورية التي بدأت تتجمع في مصر وعلى رأسها اللورد ولسلي الذي قاد جيش الامبراطورية واحتل بها مصر قبل سنتين . وكان سيرهم في موسم الأمطار حيث اخضرت الأرض وامتلأت البرك بالمياه وتقاطرت عليهم افواج من الراغبين في نصرة الدين او الفوز بالشهادة وهم متشوقون لليوم الذي يدخلون فيه الخرطوم فاتحين وشاعر المهدي الشيخ محمد عمر البنا ينشده قصيدته التي مطلعها :

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت في شأن الاله حياة

وفي شات قبل الدويم وافاه أستاذه محمد شريف ودنور الدايم وكانت بينهما جفوة قبل المهدية فأحسن التلميذ لقاء الأستاذ وأخيراً وصل المهدي بجيش من أنصاره في ديم أبي سعد غربي النيل الأبيض قبالة الخرطوم في يوم ٢٣ اكتوبر سنة ١٨٨٤ وتباشر أنصاره الذين كانوا يحاصرون المدينة وزادت جرأتهم وهلعت قلوب المحاصرين ورأى غوردون ان يقوي من عزائم الجند والسكان بأن كتب المنشور الآتي : « ان الجيش الانجليزي القادم لنجدتنا تبلغ عدته خمسين ألفاً وقد انقسم الى قسمين . قسم بطريق أبي حمد وقسم بطريق ودقد وقد وصلت أول فرقة منه كورتي وعن قريب تصل بربر وربما وصلت لخرطوم قبل وصول محمد أحمد الى أم درمان فتشددوا وأعلموا ان الله ناصركم

والسلام » . وهذه كانت كذبة بيضاء كما يقولون لأن ولسلي لم يصل لدنقلة الا في ٣ نوفمبر ولم تتحرك مقدمة طابور الصحراء من كورتي الا في ٣٠ ديسمبر .

انذارات للجميع :

وكانت سياسة المهدي وبالتالي قواده ترمي الى انذار العدو قبل الهجوم عليه . فالأمير عبد الرحمن النجومي كتب لغوردون منذراً عندما علم تحرك المهدي من الرهد متجهاً للخرطوم « ان الامـــام المنتظر قد تحركت ركابه الشريفة من الرهد غازيا الخرطوم بجيوش لا عدد لهـا فأنصحك ان تقابله مع من تختار من الاعيان طائعاً طالباً الأمان وهو لا شك يؤمنك على نفسك ومالك ومن معك وذلك أولى من سفك الدماء . وأما ما ينقله اليك الجواسيس من ان الانجليز قد أرسلوا جيشاً لانقاذك فـكله كذب . وهم انما ينقلونه اليك لتبذل لهم العطاء كما هي عادتك . وأنا بعون الله قادر على فتح الخرطوم وأخذها منك عنوة ولكن سيدنا الامـــام المهدي أمرني بنصحك والرفق بك حقناً للدماء والسلام على من اتبع الهدى » .

وأجاب غوردون : « من غوردون باشا والي السودان الى ود النجومي بالكلاكلة . أعلم اني لست بمبال بك ولا بسيدك المهدي ولا بمـــا معكما من الجيوش . وأما خبر قدوم الجيش الانجليزي فليس هو من اختلاق الجواسيس بل قد جاءتني به أخبار رسمية من قبل الحكومة الخديوية والدولة البريطانية العظمى وسترى عن قريب ما يحل بك من الدمار وتقول يا ليتني مت قبـل هذا . ولا تعد الى مخاطبتي بعد الان . فهذا آخر العهد بيننـا والسلام » .
ووصول المهدي الى الخرطوم كان له أثره في المدينة فأثار احمد العوام الناس وهو من أنصار الثورة العرابية المنفيين وأتهم بأنه حـــاول احراق مستودع الذخيرة فحكم عليه بالاعدام واتفق بعض الاعيان وخاطبوا المهدي سراً بأنهم معه قلباً وقالباً وسوف يقومون بدورهم في إضعاف الحكومة وسيلحقون

به عندما تسنح الفرصة وضبط جواسيس غوردون هذه الرسالة فسجن بعضهم في الثكنات العسكرية وحددت إقامة الآخرين في منازلهم .

واتباعاً لسياسته كان المهدي يود ان تسلّم له الخرطوم صلحاً كما فعلت الأبيض . ورأى ان ينذر غوردون أولاً فكتب له : « وبعد فمن العبد المفتقر الى الله الواثق بما عند مولاه محمد المهدي بن عبدالله الى غوردون باشا : اعلم أني حضرت بالقرب من أم درمان بجيوشي المنصورة وأصحابي وأحبائي في الله المؤيدين بالنصر من عند الله . وكن على يقين اني على علم من حضور عساكر الانجليز بجهة دنقلة ولكني لست مبالياً بهم ولا بغيرهم بفضل الله . وسيكون لهم أسوة بجيوش هكس والشلالي ..ولولا مراعاة حسم دماء المسلمين لضربت صفحاً عن مخاطبتك وبادرتك بالهجومات التي لا اشك في نجاحها فسلم تسلم انت ومن معك وقد نصحتك وانصحك والا فالحرب بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى » . ورد غوردون بقوله : « لست ابالي بك ولا بجيوشك وليست العساكر الانجليزية بجهة دنقلة كما تزعم تضليلاً لعقول أنصارك وإغرائهم بطلب المستحيل بل هم بجهة بربر والمتمة . وسترى ما يحل بك وبجيوشك عند مجيئهم من النكال بل اذا لم يأتوا ففي الكفاءة لأن أعرفك قدرك ولا تغرنك كثرة أنصارك فالبغي له مصرع والسلام » .

تحرج الحالة والامام المهدي يستعمل الرفق ويود التسليم صلحا :

وهكذا وقف الرجلان وجهاً لوجه : فالمهدي في أوج مجده وقد دانت له البلاد بأكملها ما عدا بعض الحاميات وهذه تحت نطاق من الحصار لا تفلت منه . وأنصاره بلغ بهم الاعتقاد في رسالته والايمان بما جاء به ما جعلهم يتسابقون الى الموت نصراً للدين وجهاداً في سبيل الله وهو يشع عليهم من روحه وايمانه بصدق رسالته . وغوردون يفاخر بقوة الامبراطورية التي لا تغرب الشمس فيها ووراءه تاريخ انتصاراتها السياسية والحربية معتداً بكفاءة

الجندي البريطاني . وها هو الرأي العام البريطاني والمملكة نفسها يتجهون بأنظارهم وقلوبهم نحو الخرطوم ويتابعون بلهفة واهتمام مسير الحملة الانجليزية. وسكان الخرطوم كانوا في حالة نفسية سيئة ونفد قوتهم وبعث غوردون بالرقيق والمساكين العجزة من النساء والرجال الى المهدي بكتاب مفاده « اعلم ان الجنس للجنس رحمة وهؤلاء المساكين يشتركون معك في الجنسية وقد قضت الحال باخراجهم من الحامية بعد ان عاشوا فيها سنة على نفقة الحكومة فصار عليك الآن ان تتولى أمر معيشتهم فافعل بهم ما انت أهله». وصلت طابية أم درمان غربي النيل الأبيض بعد أن نفد قوتها وحاول جنود الحامية الخروج أكثر من مرة ليفتحوا ثغرة في صفوف الانصار لجمع بعض القوت ولكنهم فشلوا .

وبدأ بعض السكان يتسللون خارج الخرطوم والالحاق بالمهدي، ونشر كتابا لانصاره يوصيهم خيراً بهؤلاء « وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي الى أحبابه وأصفيائه أنصار الدين بالهوى (غرب النيل الازرق) والشرق والغرب وخصوصاً العلماء والرؤوس . وبعد فاذا فهمتم هذا أحبابي فألفوا عباد الله الذين يخرجون مسلمين ومنقادين بأنواع التأليف وتلقوهم بالاكرام والتشريف ولا تنظروا لمن استشهد من الانصار فتحنقوا بسبب ذلك على من كان مع الكفار فان قيامنا هذا والله ومن استشهد من الانصار فقد نال عظيم المقدار فيما فعله لوجه الله . فأكرموا الذين يأتون مسلمين وخصوصاً العلماء ومن كانوا أهل وظائف كبار وبالاخص نحو الامين الضرير فقد قال صلى الله عليه وسلم « اكرموا عزيز قوم ذل وغنياً افتقر والسلام » .كان هذا المنشور في ٦ يناير سنة ١٨٨٥ . وخاطب المهدي بمنشور آخر اهل الخرطوم ذكرهم ورغبهم فيما عند الله وصفح عنهم فيما فعلوه قبل ذلك من عدم التسليم بهديته وأعطاهم الامان : « أترغبون النجدة والفرج عند الانجليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذي بيده أموركم وقوامكم . وهو القوي العزيز . فما الانجليز وغيرهم ضعافاً

مضاعفة بشيء في جنب قدرة الله التي يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب وفا الغوث الا من عند الله القريب المجيب » .

ومع ان الخرطوم قد اشتد الحصار عليها وضاق وانحطت روحهم المعنوية الا ان المهدي ما كان ليريد اقتحامها وأخذها عنوة وما كان يريد للدماء ان تسفك وللمدينة الخراب . فحذر أصحابه من معاملة المستسلمين بقسوة بل أمرهم بحسن وفادتهم ورغب أهل الخرطوم في التسليم لامر الله وبقي عليه الآن ان يخاطب غوردون بكلام صريح ولكنه لا يجرح فيه كبرياءه : « وبعد فمن العبد المفتقر الى الله المعتصم به محمد المهدي بن عبدالله الى غوردون باشا فسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان اعرضت كان عليك اثمك واثم من معك . فقد أتاني الخبر من رسول ان الجردة الآتية لو كان معي ستة أنفار تموت أو خمسة تموت او واحد تموت أو وحدي كذلك . ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد أتاني خبرها أنها تموت أيسر من موت جردة الشلالي وهكس والمديريات الغربية كلها والبحر الأبيض . وكذلك موعود بجميع البلاد فالأمر لله ما دام أن الله القادر أيدني بالكرامات وبالنصر فلا يضرني انكار منكر وانما يضر نفسه فقط . والأمر الذي وعدت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم صار . على ان الجردة التي تعتمد عليها مالها وجه بوصولها لكم من سد الانصار الطرق فان أسلمت سلمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وإن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله والسلام » . « تحشية : وإن طلبت زيادة بعد وصول جوابي هذا فتخبرك المرأة الواصلة اليك وإن رأيت التمكين واليقين ان أردت التسليم اكثر من هذا الجواب سنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة في الامان فلا مانع وبذا لزمت التحشية » .

مجهودات اخيرة من المهدي لعدم اراقة الدماء :

وأردف هذا بكتاب آخر هذا نصه : « وبعد فان أراد الله سعادتك

وقبلت نصحنا ودخلت في أماننا وضماننا فهو المطلوب وان أردت ان تجتمع على الانجليز الذين أخبرنا رسول ﷺ بهلاكهم فنوصلك اليهم فالى متى تكذبنا وقد رأيت ما رأيت وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بهلاك من في الخرطوم قريباً الا من آمن وسلم ينجيه الله ولذلك أحببت لله ألا تهلك مع الهالكين لاننا قد سمعنا مراراً فيك الخير . ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة مــا أجبتنا بكلام يؤدي الى خيرك كما نسمعه من الواردين والمترددين . والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك وفيما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى ان ييسر الله هدايتك بها اذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة الى الله ولذلك طالما كاتبناك لترجع الى وطنك وتحوز فضالتك الكبرى ولئلا تيأس من الفضل الكبير أقول لك قــال الله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » والسلام . وقد بلغني في جوابك الذي أرسلته الينا انك قلت ان الانجليز يريدون ان يفدوك وحدك بعشرين الف جنيه . ونحن نعــلم ان الناس يتقولون من البطال كلاما كثيراً ليس فينا وذلك بصدور من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه إلا من اجتمع بنا وانت ان قبلت نصحنا فيها نعمت وإلا ان اردت ان تجتمع على الانجليز فبدون خمسة فضة نرسلك اليهم والسلام ».

طابور الصحراء :

ولنرجع الآن حملة الانقاذ في دنقلة وقد وصل قائدها اللورد ولسلي وعرف من رسائل غوردون التي وجدت طريقها لدنقلة انه يطلب وصول طلائع القوة على وجه السرعة ويكفيه عدد قليل جداً من الجنود الانجليز بملابسهم الحمراء ليستعرضهم في شوارع الخرطوم ويطمئن الأهالي ورجال الحامية الى ان الجيش الانجليزي في طريقه اليهم ولهذا بعث بالوابورات لتقلهم من المتمة . وتنفيذاً لرغبة جوردون هذا جهز ولسلي طابوراً سريعاً يجتاز الصحراء من كورتي الى المتمة ويبعث بطلائعه للخرطوم ويعسكر الباقي في المتمة الى ان يتكامل بقية

الجيش الذي سيتخذ طريق النيل في قواربه . وفي آخر ديسمبر بدأت طلائع طابور الصحراء تغادر كورتي الى آباز الجكدول وفي ٨ يناير سنة ١٨٨٥ غادر قائد الطابور الجنرال ستيوارت كورتي . وبعث المهدي سرية بقيـادة الأمير موسى ودحلو وصلت لملاقاة الطابور في الصحراء قبل ان يصل النيل وبعث حاج علي ود سعد لاستنفـــار الجمليين وظل يرسل جيشاً بعد آخر كنجدة . ووصل موسى ودحلو واحتل آبار ابي طليح في الصحراء بعيداً من المتمة .

ولم يكن بد للانجليز من اقتحـــام الآبار . وباسلحتهم الحديثة وتدريبهم استطاعوا ان يجلوا الأنصار عنهـا بعد ان استبسل ومات كثير من الجانبين واستقوا من الآبار ثم واصلوا سيرهم نحو النهر وتعرض لهم الأنصار اكثر من مرة ويدور قتال يسقط فيه عدد من الجـــانبين وجرح قائد الانجليز الجنرال ستيورات جرحاً مميتاً ولكنهم شقوا طريقهم ووصلوا النهر . وترك اكثرهم متحصنين في النهر واستقل سير شارلس ولسون البواخر ومعه بعض الجنـــد الانجليز بملابسهم الحمراء وقاسى الوابوران عناء في الطريق وخاصة في شلال السبلوقة ، وفي صباح يوم ٢٨ يناير حين اقتربوا من الخرطوم وعندمـا وصلوا قبالة جزيرة توتي كانوا هدفاً للنيران من جانبي النيل وصاح فيهم الأهالي ان الخرطوم سقطت . وأخذ سير شارلس منظاره وعاين به المدينة وشاهد الدمار والتخريب ولم ير للعلم التركي أثراً فوق ساريته في مبنى الحكمدارية ولم يفعل المهدي عندما نقل اليه خبر الوابورات اكثر من ان رفع يديه الى السماء يدعو بقوله « اللهم يا قوي يا عزيز انصرنا على الترك واعوانهم الشايقية والانجليز » . ورجع السير شارلز ادراجه والرصاص ينهمر عليه كالمطر من توتي وام درمان وظل يتعثر في مياه معاديــة وفشا روح التمرد والعصيـــان بين الجند السودانيين الذين كانوا بمعيته وساهمت جنادل النهر وجزره الرمليـــة في اعاقة سيره وأخيراً بعد ان تعطـــل وابور وانعطب آخر أنقذه الجنود المعسكرون في النهر بالقرب من المتمة بعد أن تعرض لأخطار جسيمة .

اقتحام الحامية والنصر :

وكان المهدي حين علم بتقدم طابور الصحراء أرسل سراياه كما قدمنا لتقضي على قوة الانجليز في الصحراء وتظل الخرطوم في ضيقها وحصارها لتستسلم له ولكنه ما أن علم بوصولهم للنهر حتى قرر الهجوم على الخرطوم وأخذها عنوة حتى لا تتقوى بالحملة الانجليزية . واتخذوا هذا القرار في مجلس عقد من الخلفاء والأمراء ورجع المهدي الى معسكره في ديم أبي سعد تاركا تنفيذ الخطة لقائديه النجومي وأبي قرجة . وفي فجر يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م ركز المهاجمون هجومهم على ثغرة في الاستحكامات تقع على جهة النيل الأبيض والتي لم تتم تقويتها عندما نزل النهر بعد الفيضان ويقال ان السنجق عمر ابراهيم من ضباط الحامية أفشى سرها للانصار وقضوا ليلهم بين ركوع وسجود وتهليل وتكبير وبدأوا بأن فتحوا النيران على طول التحصينات وتحت ساترها تسلل الانصار الى الثغرة وباغتوا ما خلف الاستحكامات من الجنود وتسلق بعضهم فوق أجسام بعض حتى علوا على الاستحكامات وهبطوا من ناحيتها الأخرى . وسرعان ما نشب قتال اليد باليد الذي يجيده الانصار بالسلاح الابيض وذهب بعضهم الى ابواب الاستحكامات ففتحها وتدفق سيل الأنصار داخلها . وذهب فريق من الانصار تواً الى السراي يقتلون من شهر السلاح أمامهم ويصعدون السلم فيقابلهم غوردون وجهاً لوجه وهنا تختلف الروايات : فتقول بعضها أنه سألهم عن محمد أحمد فاجابوه بالطعن . وبعضها تقول أنه كان يطلق النيران مثل قواصته فما كان من الانصار الا توجيه الرماح نحوه فاحتزوا رأسه وحملوه الى المهدي .

تأكد للسر شارلس ولسون سقوط الخرطوم ولكنه لم يتأكد فيما اذا كان غوردون قد مات أو اخذ اسيراً فان كانت الاولى فان مسألة انقاذه غير ذات

موضوع وان كانت الثانية فهناك بصيص من الامل في انقاذه : غير ان خبر موته تأكد وحزن عليه الشعب الانجليزي وانحى باللائمة ومعه الملكة نفسها على وزارة مستر جلادستون اذ ان الخرطوم سقطت ومات فيها غوردون يومين قبل وصول الوابورات اليهاورسخ في الاذهان أنه لو وصلت قبل السقوط واستعرض غوردون هذا العدد البسيط من الجنود الانجليز بملابسهم الحمراء في شوارع الخرطوم لعلت الروح المعنوية للحامية ولاضطر المهدي لفك الحصار . وهذا وهم لان خطة ولسلي تتلخص في ان يكون طابور الصحراء عندما يصل المتمة على النيل قاعدة ولا يتقدم الطابور الى الخرطوم الا عندما يتكامل باقي الجيش في رحلته الطويلة على النيل في القوارب وعبر الشلالات والجنادل وهذا ربما يأخذ أكثر من شهر . ونسوا ان المهدي ما صبر على الخرطوم الا لامله في ان تسلم صلحاً كما سلمت الابيض ولكن عندما علم بوصول طابور الصحراء ونتيجة المعركة بينه وبين أنصاره لم يبق له الا أن يقتحم الحصون ويفتحها عنوة . والحامية كانت في الرمق الاخير من حياتها اذا انعدمت الاقوات ولا سبيل الى الوصول اليها من بقية أنحاء السودان .

وطلب ولسلي تعليمات جديدة بعد أن تراجع طابور الصحراء الى دنقلة لان الهدف الاول للحملة وهو انقاذ غوردون لم يتحقق . وكان رد الحكومة أن تعلياته الجديدة هي سحق قوة المهدي وتترك له الموعد الذي يتقدم فيه نحو الخرطوم او انسب ميعاد هو بعد فيضان النيل في موسم الامطار . وترك ولسلي جنوده تتجمع في دنقلة تستعد للحملة المقبلة وذهب للقاهرة لتكملة الاستعدادات ولكن عندما حل أبريل فترت حماسة الحكومة البريطانية للانتقام لغوردون وبرزت مشكلة في أفغانستان بينها وبين روسيا وربما تحتاج الى الدخول في عمليات حربية هناك ورأت ان تسحب جنودها من دنقلة لان حملتها هناك لا تخدم غرضاً . وفي ١١ مايو أصدر ولسلي أوامره

بانسحاب جنوده من دنقلة لمصر وأثناء تراجعهم هذا سقطت وزارة جلادستون. وتألفت وزارة المحافظين تحت رئاسة لورد سلسبري ووقف انسحاب الجنود واتصل ولسلي بالحكومة الجديدة التي أمرت في أول الامر وقف الجلاء غير ان الجنرال بولر الذي كان يشرف على عملية الانسحاب أبرق بأن الجلاء كاد يتم فعلاً واذا ما أريد للجنود الرجوع الى أماكن تجمعهم في دنقلة فان ذلك يعني إيفاد حملة جديدة . ولم تر حكومة سلسبري ما يستوجب القيام بحملة جديدة وأمرت باتمام الجلاء وأضيفت كرامة جديدة للمهدي حيث تراجعت القوات البريطانية من تلقاء نفسها خوفاً منه ومن قوته الرهيبة ولم يجدوا مبرراً لهذا الانسحاب سوى الخوف والرعب لأنهم لم يكونوا على علم بتقلبات السياسة الانجليزية .

تعمير البقعة (ام درمان) :

ومن عادة المهدي أنه لا يضع معسكره في مدينة الترك الملوثة ولذلك أسس مدينة أم درمان التي سميت « ببقعة المهدي » ونقلت أخشاب الخرطوم وطوبها وأنواع الزنك لتبنى أم درمان . وأول بناية مؤقتة هي جامع من الزنك كانوا يسمونه جامع الصفيح وامتد المعسكر في مساحة كبيرة بالانصار الذين انتقلوا من ديم أبي سعد ومن مواقعهم في حصار الخرطوم وبالوافدين من مختلف انحاء السودان لمبايعته والتمتع برؤياه وقد وضح لهم ما كان غامضاً فلا تردد ولا شك بعد اليوم .. ووجهت الحملات لاخضاع الحاميات التي لم تسقط بعد وهي سنار وكسلا وكذلك تمردت بعض الجبال في جبال النوبة . واتجهت أنظاره لفتح مصر . ومهد لذلك بأن بعث بحسين باشا خليفة القيام بأمر المهدية في صعيد مصر ولكنها كانت خدعة منه جعلته يتخلص من السودان ويستقر في بلدته في صعيد مصر .

انذار الخديوي توفيق :

وكعادته لا بد من ان يوجه إنذاراً للخديوي توفيق الحاكم الشرعي لمصر فذكر له اندراس معالم الدين بما أدخله فيه أهل الكفر من البدع والضلالات وتعطيل أحكام الكتاب والسنة وأنه بعث لاحياء السنة وقلد بالمهدية الكبرى وان من شك في مهديته فهو كافر وما ان تزحف جيوشه حتى يسير النصرمعها ثم بسط له تاريخ حملاته وانتصاراته على الجيوش الخديوية وأخيراً على الحملة الانجليزية اذ ولت هاربة لا تلوي على شيء . ثم ذكر له الآيات من الكتاب الكريم التي تحذر المسلمين من موالاة اليهود والنصارى وأعـــداء الدين وختم رسالته بقوله : « وقد حررت اليك هذا الكتاب وأنا بالخرطوم شفقة عليك وحرصاً على هدايتك فأرجو الله ان يشرح صدرك بقبوله ويدلك على صلاحك ورشادك في الدارين . وها أنا قادم على جهتك بجنود الله وعن قريب ان شاء الله تعالى . فان أمر السودان قد انتهى فان بادرتني بالتسليم لأمر المهديةوالانابة الى الله رب البرية فقد حزت السعادة الابدية وأمنت على نفسك ومالـك وعرضك انت وكافة من يجب دعوتنا معك وان ابيت بعد هذا الاعراض عن طريق الفلاح والرشاد فانما عليك اثمك واثم من معك ولا بد من وقوعك في قبضتنا ولو كنت في بروج مشيدة » . وكان احد الاسرى من أهل الشام في معسكر المهدي فبعثه عاملاً على الشام وكذلك اتصل به بعض أهل مراكش المستوطنين في مصر ان يسمي أحدهم أميراً على مراكش لنشر الدعوة هناك والقيام بنصرة الدين .

جهاز الدولة :

وقامت الدولة الجديدة بعد سقوط الخرطوم وتأسيس أم درمان كعاصمة على أسس الشريعة الاسلامية فلا قانون غير الشريعة وضربت النقود وأسس بيت مال المسلمين وكوّن المهدي مجلساً من الامنـــاء للنظر في

الشؤون الادارية تحت رئاسة الخليفة عبدالله . فالرسائل والقرارت بعد موافقة الاعضاء عليها تختم بختم المهدي . وفي الاقاليم فالوالي هو الحاكم الاداري وهو قائد الجيش . وعندما رتب الامور على هذه الحالة وحل رمضان سنة ١٣٠٢ هـ اشتاق المهدي الى الخلوة لربه والانصراف عن شئون الدنيا والناس ولا سيا انه لم يمارسها في السنين السابقة لانها كانت للجهاد والحرب ووجّه منشوره الآتي الى انصاره : « وبعد فيقول العبدالله محمد المهدي ان هذا الذي أقبل هو شهر رمضان زمن الاقبال على الرحمن . ميدان الاشتياق الى عظيم الشأن فانزعوا أيها الأحباب فيه للديان ووطـّنوا قلوبكم على الشدائد والرضا بالبلايا والامتحان حيث وعد بذلك الرحمن لتبيين حال أهل الصفوة والرسخان وبشر الصابرين بعظمة الشأن وحسن العواقب وتولية الديان فتوكلوا على الله وفوضوا له في كل ما يفعل لحسن الظن به إذ هو حقيق بالأحسان وهو العالم بما لا يعلمه الابوان . فتحققوا ذلك ايها الأحباب وانصبوا أنفسكم لله وارفعوا حوائجكم فكلنا عبيد الله والأمور بيده فلا تشغلوني بقضايا ولا بحوائج في هذا الشهر وخلوننا للذكر والتذكار والصلوات والدعوات فان فقد العبد نور الصبر والرضى والتفويض وأراد أن يرفع حاجته إلى العبيد فها هم الخلفاء نيابة عني والأمناء المتبين والقاضي . فمن شغلني بشيء في رمضان بعد هذا فلا يلم إلا نفسه والسلام غاية شعبان سنة ١٣٠٢ هـ » .

انتقال الامام للدار الاخرة :

وكأنما كان المهدي يودع الدنيا في منشوره هذا . ففي اليوم الرابع من رمضان أصابته حمى وعندما كان ضحى يوم ٩ منه (٢٢ يونيو ١٨٨٥) ، إرتفعت روحه للرفيق الأعلى وفارق الدنيا مطمئناً ان وفقه الله لتوحيد الكلمة وضم الصفوف . فزعامته المرتكزة على الدين وخصائص الشعب الممتازة جعلتهم يقومون بالمعجزات ويقفون في وجه القوات المزودة بأحدث الأسلحة . كل ذلك لأنه آمن في جرأة وشجاعة برسالته وتابعوام في عقيدة

واقتناع بقيادته فكان لهم نعم القائد يؤاسي مصابهم ويعطف على فقيرهم ولا يأمرهم بأمر هو بمنجاة عنه . فبكوه بدموعهم وأشعارهم ودفنـوه في جوانحهم قبل ان يلحدوه الثرى . ولا سيما أنه قضى ولم يجـاوز الأربعين إلا بعامين ولم يواصل فتوحاته التي كانوا على استعداد لمصاحبته فيها يبذلون أرواحهم في سبيلها مثلما فعلوا من قبل ولكنها ارادة الله قضت ولن تجد لها تبديلا .

دعائم رسالة المهدية :

وقد طغت اخبار الانتصارات الحربية في قصة المهدي وحياته على مـا عداها من تعاليمه الدينية ومذهبه في التجديد وقد بنى أساس تعاليمـه على دعامتين وهما بساطة الدين والعمل به . فقد اختلفت المذاهب وتعددت الملـل والنحل وتلك الاكداس من الكتب تشرح وتصحح وتحشى الصفحات تـلو الصفحات في مسائل فرعية لا قيمة لها من حيث الدعائم والأركان التي تقوم عليها العقيدة الاسلامية . وذلك الخضم من وجهات النظر المختلفة بين العلماء في تفاصيل ليست من أصل الدين والتي يغرق المسلم العادي في لججهـا – كل ذلك حسب رأيه حجب نور الحق والدين المنبعث من الكتاب والسنـة الصحيحة ، وما كان الاسلام في نظره عسراً يصعب فهمه على المسلم العادي وفي اعتقاده أنه دين الفطرة الانسانية تتلقى النفس البشرية فيوضاته وإلهامه دون كبير عناء أو مشقة .

وفي الناحية الصوفية تعددت الطرق واختلفت وحتى ظن أن كل شيخ يقوم بتأسيس دين جديد وأن غيره من زعماء الطرق خارج عن الدين وضـل القوم حتى انهم أصبحوا يوجهون أنظارهم لمشائخهم بدلاً من ينبوع الدين والعرفان الأصيل الكتاب والسنة – كل ذلك عرفه المهدي وخبره فما من عالم إلا وجلس في حلقته وما من ولي معتقد وصالح نابه الذكر إلا واتصل بـه .

وسمع ووعى ما يعتقده الناس وما تتناقله الألسن ومثلمـــا حجبت الكتب والشروح والخلافات المذهبية نور اليقين المتجلي في القرآن والسنة أضل أرباب الطرق عامة المسلمين وتنكبوا بهم محجة الصواب .

والدعامة الثانية : هي العمل بالدين والخضوع لنواهيه وأوامره والقيـام بفروضه وواجباته . فقد طفت على القوم موجة من الاستهتار والانصراف عن الدين وانحدر الكل في هاوية سحيق قرارها ورأى بعينيه مـــا وصلت اليه الحالة في السودان وسمع الكثير عن حالة البلاد الاسلامية الأخرى ورأى أنه مها سمت المبادىء ومها صحت الأصول فالعمل بهـا ضرورة لازمة فالشريعة الاسلامية معطلة والحكومة والقضاء يقومـــان على العرف والعادة والقوانين الوضعية والحـكام يتساهلون مع الشعب في اتبـاع الفروض الاسلامية والعمل بها . والبدع والضلالات تفعل في جسم الأمة مثلما ينخر السوس في الأخشاب وهو يتمثل بالحديث القـــائل « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك هو أضعف الايمان » وما كان للمهدي ان يكون سلاحه أضعف الايمان بل السيف والسيف أولاً .

وتنفيذاً لهذه المبادىء قام بأعمـــال أنكرها عليه العلماء اذ امر باحراق الكتب إلا الأصول منها كالقرآن والصحيحين وأحيـــاء علوم الدين للغزالي وغيرها سماها لأنصاره . وتلك الكتب التي أمر باحراقهـا في نظره حجبت النور المنبعث من القرآن والسنة الصحيحة . فليهدم هذا الحائط وليسرح المسلم نظره حتى يرى بعينه نور الحق واليقين . والمذاهب الأربعة يبطل العمل بهـا لأنها المسؤولة عن إقامة السد في وجه منبع العرفـان . والمهدي يشكرهم على اجتهادهم وأنهم قـادوا المسلمين الى ان أوصلوهم لزمان المهدي المنتظر . واذا كان عهدهم قريباً نوعاً ما بزمان النبوة الا ان من أخذ عنهم بالتوالي بعد بهم الزمن وأصبح الدين في حاجة الى تجديد لا يستطيع ان يقوم به المقلدون .

وهذه مقتطفات مأخوذة من أقواله توضح نظريته في التجديد التي أسلفنا

ذكرها . روي عن عبد الصمد حاج شرفي أنه قـال : « الحاج مرزوق رجل شايقي عالم كان قبل المهدي في قدير وسأله مرة قائلا : معلوم ان المذاهب هي أربعة حنفي وشافعي ومالـكي وحنبلي . فما هو مذهب المهدي . فقـال له هؤلاء الأئمة جزاهم الله فقد درجوا الناس ووصلوهم الينا كمثل الراوية وصلت الماء من منهل الى منهل حتى وصلت صاحبها للبحر فجزاهم الله خيراً . فهم رجال ونحن رجال ولو أدركونا لاتبعونا . وان مذهبنـا هو الكتاب والسنة والتوكل على الله وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأي المشايخ » .

ما رواه ود البدري في أحد مجالس المهدي . قـال المهدي عليه السلام « أيهـا الفقراء والمهاجرين والأنصار ان كلا من كان عنده مذهب او نص أو شيخ فيترك مذهبه ونصه وشيخه لأن هذا أخذ من هـذا فقد أبعدوا من نور النبي ﷺ ونحن جئنا نحي نور النبي » وروى عنه أنه قال « أتركوا الكتب لكتاب الله فانها حاجبه عن فهم معناه » وقد أخذ على المهدي أنه قـال : ان أقل أنصاره مرتبة يتفوق على الشيخ عبد القادر الجيلاني وعندما سئل عن منطقة في هذا قال : « ان مناقب الشيخ عبد القادر كثيرة وهي اكثر من ان تحصر ولكن الشيخ عبد القادر لم يزل المنكر من غيره ولكن ادنى أصحابنـا اذا رأى منكراً يزيله حالاً بسيفه تبعاً لنص الحديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك هو أضعف الايمان » .

وكان المهدي في نشر مبادئه يخاطب الناس بقدر عقولهم ويضرب لهم الأمثلة بما ألفوه في حياتهم العادية ولا يتخذ طريقة الكتب الغامضة المعقدة . والغرض الذي يهدف اليه هو تيسير تفهم الدين وازالة ما علق بـه من غموض وابهام . فالعبادات تقليد لما يقوم به هو من صلاة وصيام والأحكام الشرعية يشرحها في منشورات في متناول الفهم العادي . وهو اثناء تبشيره يرمي الى غرس روح الزهد والتقشف في نفوس أنصاره . وان ناحية الدين الروحية

هي ممارسة وعمل لا علم ودرس وما من مجلس من مجالسه إلا وينثر الحكمة تلو الحكمة والموعظة تلو الأخرى وكلها تشير الى ضرورة ترك الدنيا والعمل لخير الدار الباقية .

أخلاق الامام وفلسفته في الحياة وتعاليمه :

وقد ظل حتى يوم وفاته زاهداً في الدنيا متقشفاً مؤمناً بما عند الله ومتجافياً ما عند الناس . يضرب به المثل في التواضع والرأفة والمؤاساة . وقد ذكر القس أوهر الدر قصة تمثل لنا عطفه الانساني حتى ولو كان على من يخالفه في الملة والدين . فقد روى أنهم سيقوا من محطتهم التبشيرية في الدلنج إلى الأبيض وأدخل القس على المهدي وهو جالس على فروة على الأرض وأمامه اناء مملوء بشراب القمردين . فما كان من المهدي بعد أن رأى ما على القس من الأعياء والتعب إلا ان ناوله ذلك الأناء ليروي ظمأه منه . وما كان ليحلو للمهدي وهو صاحب الانتصارات وزعيم الغزوات الموفقة إلا أن يحمل طعامه بيده بالرغم من وجود العبيد والأتباع والمريدين الذين يتحرقون شوقاً للقيام بخدمة الامام ويخرج الى أنصاره يشاركونه فيه . وما عرف عن المهدي إيثاره لذوي قرباه بل من ظهر منهم في المهدية انما برز لسابق اخلاصه وولائه للمهدية . وما عرف عنه أنه قرب قبيلة بذاتها فالكل عنده سواء يمتازون بايمانهم برسالته وصدق خدمتهم لها ، فمن لازموه قبل رسالة المهدية فهؤلاء هم أصحاب المرتبة الأولى ويقال لهم أبكار المهدي ويليهم في المرتبة والمقام انصار أبا فقدير فالأبيض .

وقد تشبه المهدي بالنبي في كثير من أحواله. فقد عين خلفاءه وسماهم بهم : فالخليفة عبدالله خليفة الصديق والخليفة علي ود حلو خليفة الفاروق .والخليفة شريف خليفة الكرار وهو ابن عمه مثلما كان سيدنا علي لسيدنا محمد ﷺ . وقد عرضت خلافة عثمان للسنوسي في ليبيا ولكنه رفضها وظلت شاغرة.

وأتباعه من المهاجرين والانصار ولكن لفظة الانصار اصبحت هي السارية على الكل وهو نفسه أتى باعثاً لعهد النبوة . ويتحدث في خطاباته ومنشوراته عن الحضرات مع النبي والخلفاء وهجرته من أبا فقدير تكملة لهذا التشبيه . وغرس في نفوس أتباعه زهد الدنيا ومناهم بالنعيم المقيم في الدار الباقية وهذا ما جعلهم يتسابقون الى الموت بنفوس راضية للفوز بالشهادة . وعندما رأى ان الكثيرين في السودان كانوا يتبعون الطرق الصوفية ويعملون بأورادها ألف لهم راتبا يقرأونه يوميا وهو مجموعة من الآيات والاحاديث والأدعية . وكان لبسه ولبس اتباعه جبة بها رقع تشبه لبس الدراويش وهذا ما دعا بعض الكتاب لتسميتهم بهذا الاسم . ومنع النساء من لبس الحلي الفضية والذهبية وصرح لهن بالزينة فيما عدا ذلك ولكن داخل بيوتهن . ويسر الزواج بتخفيف المهور وبساطة الولائم والمآدب وتحريم الرقص والغناء وضرب الدفوف وابطل بدعة البكاء والنواح على الميت والمبالغة في الحزن . ثم انه صب لعناته على اعمال السحر وكتابة الاحجبة وما شابهها من اعمال الشعوذة . واقام حدود الشريعة الاسلامية في اتباع المحرمات كالخمر والزنا وفي البدع كالتمباك والسجاير واتباعا لسياسة التيسير والتبسيط بدأ في تأليف كتاب يضمنه العبادات والاحكام الشرعية والمعاملات ليكون مرجعاً لانصاره ولكين المنية عاجلته قبل ان يودع ذلك السفر تعاليمه ومبادئه . وبموته خلفه خليفته الاول الخليفة عبدالله وكان رجل الادارة والجيش ولكنه لم يكن على غرار المهدي في الناحية الروحية وبذلك فقدت المهدية مرشدها ومصدر وحيها والهامها ولم يتفرغ عالم او علماء لشرح وجمع تعاليم المهدي ليكتب لها البقاء حتى بعد زوال دولتها .

الفصل الخامس

حكومة الخليفة عبدالله

لم يكن هناك من شك عندما توفي المهدي فيمن يخلفه . فهو الخليفة عبدالله ابن السيد محمد التعائشي فقد كان ساعده الأيمن منذ بداية الثورة ، وبينما كان المهدي زعيمها الروحي ومرشدها كان عبدالله رجل الجيش والادارة . وقد وضح المهدي في مناشيره وفي مجالسه بأن طاعة الخليفة من طاعته ومخالفته هي مخالفة للمهدي نفسه . وعندما كان يحس بالغيرة من أقربائه الأشراف لما ناله الخليفة من مكانة كان ينصحهم وينذرهم بل ويتبرأ منهم ان هم نفسوا عليه مكانته أو أبدوا مخالفة له . وبحكم نشأة وميول الرجلين كان كل منهما متمماً للآخر . فالمهدي رجل الدين والزهد والتصوف وما كان يميل لشئون الدنيا أو يتحسس نقائص المجتمع في غير الشئون الدينية ويدرك ما صار اليه الدين من ضعف وما انتشر من بدع وضلالات وعكف على الدرس والتحصيل وممارسة التصوف وأصبح يخاطب الناس في منشوراته وفي خطاباته وأحاديثه باتباع أوامر الدين والشريعة والانصراف عن ملذات الدنيا الفانية وكان لمنشوراته وأحاديثه فعل السحر في نفوس أنصاره .

مشاكل الخليفة :

أما الخليفة فقد عرف عنه منذ نشأته عزوفه عن العلم والتحصيل ولكنه رجل المجتمع الذي درس خصائصه ومميزاته ونقائصه . وسد نقصه في العلم بما ناله من معرفة شئون الناس والدنيا . فاذا كان المهدي رجل النظرية فالخليفة رجل التطبيق . وبموت المهدي كان الخليفة ملماً بشئون المال والادارة والجيش لأنه كان يتولى هذه الأمور في حياة المهدي نفسه ولكن الناحية الروحية زالت ومنشورات وأحاديث المهدي التي كانت تحفز أنصاره في الاستبسال وتقودهم للشهادة بنفوس راضية ان هي بقيت في نفوس البعض الا انها لم تكن الصفة العامة لهم وبدأت مصاعب الخليفة منذ الوهلة الاولى ، فالخليفة محمد شريف ، وهو ابن عم المهدي وبعض أقاربه ومن أيده من سكان النيل يرون في انفسهم الصلاحية للقيام بأمر المهدية اكثر من أهالي الغرب الذين يؤيدون الخليفة عبدالله لانه منهم واليهم . وكثير من العلماء لم تشرب روحهم مبادىءوتعاليم المهدية وحركتها التجديدية التي أبطلت العمل بالمذاهب وأحرقت بعض الكتب التي أفنوا زهرة عمرهم في متونها وشروحها .

وروي عن المهدي نفسه في أخريات ايامه ان المهدية وردت على نهج يختلف عما كان يرجوه لها . فقد روي عن الشيخ محمد ود البصير أنه قال : « ذات يوم بعد فتوح الخرطوم طلبني المهدي نصف النهار وقال لي ان أمر المهدية كان طويلاً . ولكن الاخوان غيروا وبدلوا . ونحن اخترنا الاخرة . فقلت كيف وانك كنت وعدتني بفتوحات كبيرة فأجاب بأنها كلها نسخت لانه لا يخفى ان القرآن ينزل من عند الله بواسطة جبريل للنبي ﷺ ويكون فيه الناسخ والمنسوخ » . وفي رواية اخرى أن أحد الانصار سأل المهدي « كيف اتبعك هؤلاء الاعراب الأجلاف . فتبسم المهدي وقال له « يا اخي ان هؤلاء الاعراب الى الآن لم يتبعوني على ما أطلبه من اقامة الدين . وقد حضرت لي جوابات في هذا اليوم من أبا بأن منهم جماعة قتلوا

سبعة من المسلمين ظلماً وعدوانا ولكن يا أخي انا لما ألزمت بأمر المهدية وتحتم عليّ ولم أجد منه خلاصاً كاتبت أهل المساجد وأهـــل الدين وطلبت منهم إجابة دعوتي والقيام معي في تأييد الدين لتأتي المهدية على حالة مقبولة عند العقلاء ، فمنعهم الجـــاه من اجابة دعوتي فدعوت هؤلاء الاعراب الاجلاف فأجابوني في الحال وهاجروا معي في الحال . فلزمني لهم حق الصحبة القديمة وجاءت المهدية على هذه الحالة المشوشة عند العقلاء حسب طباعهم وعلى حسب مراد الله. فعلى الناس ان يصبروا على جفوتهم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً».

فاذا صحت هذه الروايات فالمهدي نفسه قبل وفـاته وبعد فتح الخرطوم رأى في أمر المهدية أنها لم تأت كما أراد لها وكما كان يتوقع . فلا غرابة اذا قل الحماس لها من أولئك الذين انحازوا للمهدية تحت تأثير شخصية المهدي الجذابة وما كانوا يمنون به انفسهم من فتوحات . وهم انما يطيعون الآن خليفته لا عن عقيدة وانما انقياداً للحاكم . وهم اذ يطرون او ينعون الحـكم الجديد فبقدر ما تحتضنهم الادارة الجديدة وتيسر لهم اسباب الرزق والسيطرة . وبقدر مـــا تقربهم لوظائفها او تباعدهم عنهـا . والخليفة وقد منحه الله درجة من الذكاء وأفاد بصراً بأحوال الناس ورزق حاسة الفراسة كان يحاذر ويراقب ويجرد من النفوذ والسلطة أولئك الذين لم تمازج المهدية دماءهم .

اولاد العرب (البقارة) :

وهناك فريق كان بعيداً عن العلم ومذاهبه والطرق واختلافاتهـــا وكانوا انما يصدرون في أعمالهم الدينية عن قليل جدا من العلم بثه في نفوسهم فقهاء القرى والبادية في العبـــادات ولم يتعمقوا معهم في الاختلافات المذهبية او المجادلات الكلامية . واذا اعتنقوا طريقة فعن غير ايغال فيها أو تمسك بكل ما تقول به . وفوق ذلك فقد كانوا يمجدون أعمـــال الفروسية والبطولة . فهذا المهدي أروى ظمأهم الطبيعي لحب النضال . وكان لهم بطلا يمجدون أعماله وكان لهم هاديـــاً الى دين الفطرة والبساطة . ويخاطبهم بقدر عقولهم

ويضرب لهم الأمثال بما ألفوه في حياتهم الطبيعية . وبعد ذلك كله قادهم من نصر لنصر ومن فتح لفتح . وقد كانت قلوبهم خلواً من الطاعة لمبدأ فقهي أو طريقة دينية لحد ما . فما نادى به المهدي حق . ومــا قال به أمر تجب طاعته . ولا يهمهم ان يخرج المهدي من المغرب او المشرق او يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . ولا هم بذوي دراية بفروقات المذاهب او اختلافات الطرق . فمبلغ علمهم عنه أنــه هو المهدي الذي أزال البدع والضلالات وقد أزالها منهم والذي تغلبت أنصاره على جند الحكومة والذي أرضى غريزتهم لحب القتال والنضال والذي علمهم ما كانوا يجهلون ، ونقى صدورهم مما علق بها من خرافات وسحر وباحية .

وكان هذا الفريق الأخير من سكان الغرب وأغلبهم من قبائل البقارة والذين أصبح الخليفة الحاكم بعد المهدي من بينهم . والفريق الأول الذي بينه العلماء واتباع الطرق الصوفية كانوا من سكان النيــل وسمي الفريق الأخير بأولاد العرب والأول بأولاد البلد . وعندما رأى الخليفة عبدالله منذ الوهلة الأولى منافسة أولاد البلد له رأى ان يتقوى بأولاد العرب فهم بطانتــه وعشيرته وبعث لهم حق عندما كان في كردفان ليهــاجروا للمهدي للانخراط في سلك أنصاره وعندما أصبح صاحب المسئولية الأول بعد وفــاة المهدي شدد عليهم في الهجرة ولم يشأ بعضهم مفارقة الوطن وهناك كثير من حوادث الحرب حق بعد ان وصلوا لأم درمان . ومع ذلك فمن وصل منهم كانوا بأعداد كبيرة وتدريجياً جرد زميليه من الخلفاء من أسلحتهما ومن اتباع راياتهما وخاصة راية الخليفة شريف لأنه أصبح يخشى على نفسه ومركزه منه .

بداية الخلاف وأسبابه بين الخليفة عبدالله والخليفة شريف :

وعهد الخليفة الى أخيه يعقوب بتصريف شؤون الدولة الروتينية . فهو الذي يشرف على شؤون الجيش وبيت المال يعين قواده ويمده بالزاد والمعدات الحربية وهو وزير الداخلية من حيث عمال الأقاليم ويشرف على حاميــات

الحدود وكان يتصل بالخليفة يومياً يرفع الأمر له ويقترح والخليفة يوافق او يعدل اذا رأى ذلك . وعرف عن يعقوب لين العريكة وسعة الصدر والكرم وكان قبلة القصاد وذوي الحاجـات وجعل الخليفة لحرسه الخاص المكون من أولاد العرب ومن الجهادية السود ثكنات وأماكن حوله وأحاط المكان جميعه بسور ضخم يفصله عن بقية أم درمان . وتجمعت أسباب الخصام والنفور بين أولاد العرب وهم بطانة الخليفة عبدالله وأولاد البلد وكثير منهم بطانـــة الخليفة شريف وبعد سنين قليلة منذ ان تولى السلطة نرى الخليفة عبدالله وقد عين كل عماله في الأقاليم من بطانته وأقاربه واكبر القواد منهم أيضاً .

وبـــدأ الوشاة يغدون ويروحون بين الخليفتين ويوغرون الصدر ويزيدون في النفور ، حتى رأينا الأشراف وهم أقارب المهدي يجتمعون مـــع الخليفة شريف ويتذمرون مما وصلت اليه حالتهم ومباعدتهم من شئون الحـكم والادارة واستئثار عرب الغرب بالجاه والنفـــوذ وهم حسب رأيهم دونهم دراية وكفاية . وعيون يعقوب تطلعه على ما يقولون ويستمر في تطهـير إدارته ممن يشك في ولائهم في العاصمة وفي الاقاليم وكلما أمعـــن يعقوب في مباعدة سكان النيل عن الحـكم كلما أمضوا في شكواهم من ظلم البقـــارة ، وفساد إدارتهم . وفي جو من التوتر والقلق طارت إشاعة بأن الخليفـــة عبدالله ينوي القبض على الخليفة شريف وأبنـــاء المهدي . وكان على الخليفة شريف وأهله وأتباعه أن يحموا أنفسهم وانضم اليهم عدد من أولاد البـلد وكاتبوا من يرون رأيهم من أهل الجزيرة . وكل ذلك تصـــل أخبـاره الى يعقوب . وتقلد الأشراف أسلحتهم واحتلوا قبة المهدي والبيوت المجـــاورة وتنبه يعقوب للأمر ووزع حرس الخليفة الخاص على بيوت الخليفة واحتاط بالأشراف .

الفتنة :

وأزعج هذا الانقسام والانشقاق في صفوف المهدية كبارالقوم من المحايدين

وعلى رأسهم الخليفة علي ودحلو وتدخلوا في الأمر وتم الصلح بعد وقوع بعض المناوشات على أن يعفو الخليفة عبدالله عن اخيه الخليفة الشريف ويجعله من أهل مشورته وتربط اعطيات خاصة له ولأبناء ونساء المهدي وتعانقا ولكن القاضي أحمد قاضي الاسلام كان يحمل ضغينة ضد الخليفة شريف جمع مجلسه وحكم على الأشراف وكل الدناقلة الذين اشتركوا في الفتنة بقطع رؤوس الزعماء والقادة وقطع أرجل وايدي الباقين بالخلاف ولم يوافق الخليفة لأنه عفا وصفح عنهم يوم الصلح ويوم ان وضعوا اسلحتهم نتيجة لذلك . ولكن القضاة أجابوه بانه في حل من عفوه لهم لأنه كان لأطفاء الفتنة والآن وقد ثبت تمردهم لا يؤمن جانبهم . والخليفة في حل من وعده لهم طالما انالشريعة تحكم عليهم . فاعترض السيد المكي وقال : « كلنا دناقلة ولا نوافق على هذا الحكم ويمكنكم ان تنفوهم في الخارج طالما أن الغرض الأمان من شرهم » وبذلك حكموا بنفيهم الى بحر الجبل .وعقد مجلس القضاة جلسة اخرى وهم في طريقهم الى المنفى وقضى باعدامهم .

ولم يرض الخليفة شريف عن هذا الاجراء لانهم وضعوا اسلحتهم بعد أن وعدوا بالعفو وانقطع عن صلاة الجمعة وكان هذا بمثابة عصيان صريح . وشكل الخليفة عبدالله مجلساً اجتمع فيه ستة وأربعون من القضاة والأمناء وكبار رجال الدولة لمحاكمة الخليفةشريف وما كان لهم الا ان يدينوه وسجلوا هذه الادانة في وثيقة مهروها بأختامهم هذا نصها : « وبعد فان الخليفة محمد شريف حامد قد بارز خليفة المهدي عليه السلام بالعداوة والعصيان والخلاف حتى تظاهر بالحرابة له وشهر السلاح عليه ولم يبال بادخال الخلل في الدين وشق عصا المسلمين . فبعد هذا كله اجتمع جماعة المسلمين واحضروه بين أيديهم وحلفوه على كتاب الله تعالى فحلف وعاهد على ألا يعود الى مثل ما صدر منه ثم جاء خليفة المهدي عليه السلام نادما على شنيع فعله فقبله مع ما ارتكبه من عظيم الذنب والخطيئة وعفا عنه وقابله بالصفح والاكرام . ثم

نقض العهد وعاد الى الخلاف واضمار السوء والاصرار على عدم الامتثـــال .
فضلاً عن كونه تاركاً الجمعة والجماعة . فعند ذلك اجتمع أصحاب المهـــدي عليه السلام من قضاة الشرع الشريف وامراء واعيان وسألوه عن ذلـــك فقابلهم بأقبح المقال وتفوه بما يؤدي الى سوء الحال حتى قال إن الغوث معه وفي حزبه وان نصرة المهدية تحت قدمه وان الصحابة اعترضـوا على النبي ﷺ وغير ذلك من سوء المقال وما زالوا يراجعونه بالقول اللين الحسن وتلوا عليه منشور المهدي عليه السلام في خليفته والمنشور الذي وجهه اليه خاصـة وأمره فيه باتباع خليفته وعدم خروجه عن اوامره فعند ذلك أظهر التوبـة والندم .فنظراً لما حصل منه من نقض العهد وعدم استمراره على التوبة السابقة اقتضى نظر أصحاب المهدي عليه السلام طبق الوجه الشرعي وضعه بالسجن تأديباً له . ولولا إظهاره التوبة عما حصل منه لـكان جزاؤه أعظم من السجن وقد ثبت جميـع ذلك لدى أصحاب المهدي عليه السلام الآتي ذكر أسمائهم وأختامهم فيه أدناه وجميعهم شهدوا عليه شهادة حتى يؤدونهـا بين يدي أحكم الحاكمين والسلام » .

ثورات وفتن داخلية :

وهذا الذي ذكرناه كان بداية الانشقاق في صفوف المهدية وحاول بعض وجهاء كردفان وكذلك صالح زعيم الكبابيش الاتصال بالحكومة المصرية بغية التعاون معها في الرجوع للسودان وفي السنين الأخيرة من حكم الخليفة حاول عبدالله ود سعد زعيم الجعليين أيضاً التعاون مع مصر للقضاء على حكم الخليفة. وهناك ثورات مسلحة وحوادث عصيان وتمرد أو اتهامات بالتمرد . فقد قتل مادبو زعيم الرزيقات وقضت حملة من قبل الخليفة على مقاومة الكبابيش تحت قيادة زعيمهم صالح الذي قتل وأخمد اكبر قواد الخليفة شأناً حمدان أبو عنجة عصيان جبال النوبة . وفي دارفور لم تنقطع الثورات . فأمراء البيت المالك السابق في دارفور ما كانت قلوبهم مع المهدية فثار الامير يوسف ولكن عثمان

آدم قائد الخليفة في الغرب أحمد الفتنة وقتله ورفع راية العصيان أمير آخر اسمه أبو الخيرات الذي ربط كفاحـــه مع ثائر آخر من دار تامة يدعى أبو جميزة .

وربما كانت ثورة أبو جميزة أخطر ثورة واجهها الخليفة عبدالله داخلياً . فهو من رجال الدين الذين يتأثر بهم اهل الغرب وادعى أنه يشغل في خلافة المهدية مكان سيدنا عثمان بن عفان الشاغر وأنه ثار محتجاً على قفل باب الحج الذي أمر به الخليفة عبدالله.واذا علمنا ما يعنيه الحج لمسلمي دارفور والاراضي التي تقع غربهـــا والأهمية التي يعلقونها عليه ومنهم جماعات كبيرة تقضي معظم عمرها في رحلة الحج هذه ذهاباً واياباً لأدركنـــا خطورة ثورة أبو جميزة .

والانجليز في مصر بدأوا يعلقون الآمال الكبيرة على حركة أبو جميزة حيث نقل اليهم خطأ ان هذا الثائر يعمل تحت امرة السنوسي في ليبيا وأنه أحد أتباعه ورأوا ان السنوسي عن طريق أبو جميزة يسهل التعاون معه فيما اذا نجح في إنهاء حكم الخليفة عبدالله في السودان .

وفي أول لقاء بين الفريقين انهزمت قوات الخليفة وارتدت الى الفـــاشر عاصمة دارفور . وزحف ابو جميزة واجتمع عليه كثير نحو الفاشر ولكن قائد الثوار أصابه وباء الجدري وقضى عليه وواصل أخوه أساغة الزحف وخارج الفاشر التقى الفريقـــان وانتصرت جيوش المهدية وكان ذلك في فبراير سنة ١٨٨٩ م .

خطابات وانذارات الخليفة للخارج :

ومع هذه الانشقاقـــات الداخلية والثورات ضد المهدية لم يغفل الخليفة عبدالله عن الهدف الرئيسي للثورة المهدية وهو نشرها في العالم الاسلامي وغيره من البلدان وكان يعرف الخطوات التي كان ينوي المهدي اتخاذها وأول هدف

له بعد السودان هو مصر . وقد رأينا كيف ان المهدي وجه انذاره للخديوي توفيق . وها هو الخليفة من بعده لا بد من ان ينذر قبل تسيير الجيوش لفتح مصر فوجه منشوراً الى أهل مصر بدأه بقوله : « الى أحبابه في الله أهـالي الريف والجهات البحرية كافة ... وأعلموا أنه ما حملني على نصحكم ولا دعاني الى بسط العنان في عظتكم الى مزيد الشفقة عليكم والخوف في ان لا تنجح فيكم المواعظ غروراً بالأماني الكاذبة وركونا الى راحة الدنيا الفانية الذاهبة فتدور عليكم الدوائر كما دارت على من قبلكم في بلاد السودان لما أعرضوا عن قبول الحق وجنحوا الى اتباع أقوال علماء السوء الذين أضلهم الله على علم واغتروا بأكاذيب حكامهم وكثرة عدد جنودهم وعددهم العارية عن معونة الله تعالى فختم الله على سمعهم وقلبهم وجعل على بصرهم غشاوة وحـاق بهم مكرهم وهلكوا وحرقت النار أجسامهم وخسروا الدارين والعياذ بالله ... » وتوفيق نفسه يجب ان يكرر له الانذار فارسل له خطاباً مطولاً نجتزىء منه ما يلي :

« ولونظرت بعين البصيرة والانصاف وتركت التعامي عن الحق والاعتساف لاذعنت لي بذلك وسلكت باتباعي أحسن المسالك وتيقنت انك الآن بمعزل عن الهداية حيث اتخذت الكافرين أولياء من دون المؤمنين أهل العنايـة وركنت الى مؤاخاتهم والانخراط في سلكهم حتى كأنك تريد بهم إطفاء نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره اعداؤه » .

والسلطان عبد الحميد أيضاً خاطبه الخليفة عبدالله بقوله : ومع كونـك تدعي أنك سلطان الاسلام القائم بتأييد سنة خير الانام فمالك معرضاً عـن إجابة داعي الله إلى هذا الآن ومقرا رعيتك على محاربة حزب الله المؤمنـين مع أهل الكفر والعدوان فهل أمنت مكر الله أم كذبت وعد الله حـتى صرفت مجهودك في اعانة اهل الاصنام على هدم أركان الاسلام » . وخاطب أيضاً قبائل نجد والحجاز وملك الحبشة والسيد محمد السنوسي وسلطان ودّاي وحتى الملكة فكتوريا كان لها نصيب من تلك الانذارات والدعوة لدخـول الملة الاسلامية .

والخليفة عبدالله في حروبه الخارجية كان يقاتل في جبهتين جبهة مصر وجبهة الحبشة . وهذا أمر طبيعي لان الثورة المهدية دينية في أساسها تهدف الى نشر الدين الاسلامي على نظرية المهدي وهي تجديده وازالة البدع والضلالات التي علقت به وعدم تطبيق الشريعة الاسلامية واستخدام الاتراك القوانين الوضعية . وبالرغم من ان الاتراك كانوا يتخذون لانفسهم لقب خليفة المسلمين ويسيطرون آنذاك على البلاد العربية فانه يرى فيهم مارقين على الاسلام ولايعطيهم درجة أقل من درجة الكفار ،وفي كل منشوراته ومكاتباته كان يذكر الترك ويعرف فيهم أصل العلة فيما أصاب المسلمين . والحبشة جارته الثانية يقطنها الكثير من المسلمين ولكن ملوكها وبعض سكانها يدينون بالمسيحية وعليه ان يضمها لدولة المهدية . وكان الخليفة عبدالله وهو ساعد المهدي الايمن يعرف هذه الاتجاهات عنه ولو بقي على قيد الحياة لسعى لتنفيذها وبما أنه خليفته وحامل رسالته من بعده فلا بد من أن يتم ما كان ينوي المهدي السير فيه .

حملة النجومي على مصر :

والمعروف أن المهدي قبل وفاته بدأ فعلاً في تجهيز حملة من انصاره تتجه نحو مصر وكان ينوي عقد لوائها للخليفة شريف . وبدأ الخليفة عبدالله بعد وفاة المهدي مباشرة الكتابة للقبائل التي سوف تكوّن هذه الحملة من الجزيرة وبلاد الجعليين ولكن حوادث الانشقاق بينه وبين الخليفة شريف جعلته يستبعد قيادتها له وعين الامير عبد الرحمن النجومي ليكون قائدها . وسارت أفواجهم نحو الشمال لتتجمع في دنقلة وبعضهم كان يتردد في الذهاب ويختلق الاعذار وبعضهم ظهروا بمظهر التمرد كالبطاحين مثلاً . ولكن تجمعت قوة في دنقلة واستلم النجومي زمام الحكم هناك ريثما تتم الاستعدادات ويغزو مصر . غير ان مساعد قيدوم الذي عينه الخليفة مساعداً للنجومي وهو من اقارب الخليفة نفسه دخل في خلاف مع قائده واستدعى الامر ان

يستدعي الى ام درمان للتشاور ومحاولة إزالة الخلاف وكذلك النجومي حضر للعاصمة ايضاً وقر رأي الخليفة أخيراً ان يعين يونس الدكيم وهو من التعائشة رئيساً على الاثنين ولكن النجومي يقود الحملة كما قرر من قبل .

وعلى هذه الحالة من الخلاف بين القادة وبعض أفراد الحملة ما كانوا في حالة من الحماس تجعلهم يستبسلون في القتال وفوق كل هذا كان زادهم قليلا ومروا في طريقهم الى مصر في ارض قاحلة قليلة الثمرات والمؤونة وطاردتهم وابورات الجيش المصري في حلفا وأقصتهم عن النيل وكانوا ينزلون للسقاية من النهر بالليل خلسة خوفاً من قنابل الوابورات ووصلوا الى بلانة في الاراضي المصرية وهم في حالة من التعب والجوع وانهيار الروح المعنوية وضحها قائد الحملة نفسه في آخر خطاب بعث به للخليفة بما نصه :

« سيدي وملاذي بعد أهداء مزيد السلام نرفع الى مكارمكم عن أحوالنا وأحوال الأنصار الذين معنا أنه قد مسهم الضرر الشديد الذي ما عليه من مزيد واشتد بهم الحال وضاق الأمر جداً فان الجوع الحال بهم أضناهم وأذهب قواهم فورم أجسامهم وغير أحوالهم لأنهم قبل ذلك بلد العدو كان قوتهم التمر الأخضر المر ونواه وانقطع عنهم من مدة . ولطول الطريق وكثرة المشقة ضعفوا فدخلوا البلد في حالة ضعيفة ولشدة الضرر جلسوا جميعهم على الأرض وكثيرون منهم ماتوا جوعاً . وأما ضعفاء اليقين منهم فلعدم صبرهم على البأساء والضراء رغبوا في الأعداء . والجهادية والعبيد والخدم لحقوا أيضاً بالأعداء وارتدوا عن الدين . ولم يبق منهم الا النادر . ثم ان الجهادية الذين أرسلوا معنا طوبجية للمدافع من طرف سيدي يونس كانوا خمسة وثلاثين الجميع رغبوا في الكفرة وهربوا اليهم ولم يبق معنا منهم الا ثلاثة .

ولولا لطف الله بنا وجميل نظركم لما قدرنا على الوصول الى بلاجة . والحاصل ان الأنصار تعبوا وضاق بهم الحال وعظم الخطب . وطالما صبروا على ذلك لأنهم من عهد ما صرفوا بدنقلة لم يجدوا صرفاً أصلا .. أما أهل

الريف من معتوقة الى بلاجة التي وصلنا اليها فكلهم قـــاموا في عون الكفرة وحزبوهم كل التحزب ومن عهد دخولنا ديارهم الى الآن لم يأتنـا منهم وارد ولا معرّج ولا راغب في الدين ولا من يريد تجارة . بل الجميع حملوا الأسلحة النارية وحاربونا أشد المحاربة . أما بوابير الكفرة فما زالت سائرة معنا بالبحر تبيت معنا حيث بتنا وتقيل معنا حيث قلنـا وعساكرهم ماشية بالشرق في خيل وجمال لمنع الأنصار ماء البحر . ولم يكن شرب الماء الا بقتال ومضاربة واستشهاد وجراحات . وجزى الله الانصار خيراً وبارك فيهم . فانهم مـــا زالوا مطمئنين على حالهم وثابتين على محـاربة عدوهم ولا ينتظرون الا النصر والظفر بالأعداء أو الفوز بالشهادة » وكان من السهولة بمكان ان يتغلب جرانفيل باشا سردار الجيش المصري على جيش وصفه قائده بمثل ما سمعنـا وفي يوم ٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ حصلت الملاقـاة مع الجيش في توشكي وانهزمت جيوش المهدية وكان هذا أول امتحان عملي للجيش المصري الذي انشأه الانجليز بعد الاحتلال لمصر .

الحرب ضد الحبشة :

وفي الجبهة الحبشية بـــدأ الخليفة بخطاب انذار للامبراطور مذكراً اياه بانذار المهدي الأول الذي بشر فيه بالدعوة الإسلامية وانذر من المخالفة . ولم يكلف الأمبراطور نفسه مؤونة الرد على الخطابين ولكنه استعد بجيش عظيم وحشده على الحدود وأحس عـــامل الخليفة هناك بهذا الاستعداد من الجانب الحبشي وبعث بأخباره للخليفة في أم درمـــان واستدعى أعظم قواد الخليفة شأناً من كردفان وهو حمدان ابو عنجه وسار للجبهة الشرقية لدرء خطر الأحباش . وبعد ارسال انذار الخليفة وعدم تلقي الرد دخــــل ابو عنجة متوغلاً في الحبشة وأجمل اخبار عمليـاته الحربية في تقرير بعث به للخليفة ورد فيه ما يلي :

« ولما تم لنا في المسير تسعة ايام وصلنا دمبيا محل الكافر عدو الله النفس رأس عدار . فالتقتنا طلائعه الفرسان في أول البلاد فهزمناهم وقتلنـــا منهم واستطردنا السير بقية يومنا الى الاصفرار . فنزلنا قريباً من ديم أعداء الله ولما طلع الفجر العاشر من خروجنا من القلابات توضأنا على حالتنا المعهودة ورتبنـا حزب الرحمن من الأسلحة والخيول بحسب ما يسره الله لنا من عله وقمنا بعد صلاة الصبح على بركة الله تعالى قاصدين ملاقاة حزب الشيطان وعلينا من الله السكينة والوقار لا نؤمل الا لقاء الله ونصرة الدين . ولمـا تراءينا مع اعداء الله الكفرة اذا هم من كثرتهم لا أول لهم يعرف ولا آخر يوصف فابتدرونا ضرباً بمدافعهم الأربعة بمسافة لا يصلها الرمنتون لزعمهم اننا نقف مكانــا ونناوشهم مناوشة . وما زالوا كذلك ونحن زاحفون عليهم حتى ١٦ قنبلة ثم شرعوا بضرب السلاح . هذا كله والاخوان زاحفون عليهم يسبـق بعضهم بعضا اقداما بلا احجام طمعا فيما ينالونه من نفحات العزيز العلام . ولم نأذن لهم بالضرب إلى ان حققنا بأن افواه السلاح امتلأت من اعـداء الله فعند ذلك شرعنا في ضربهم بغاية الحزم وشدة العزم مع الزحف عليهم . فما كانت لهم ساعة إلا وقد زلزل الله اقدامهم والحـــق الرعب في قلوبهم وانكشفوا عن وجوهنا مسرعين . وبعد انكشاف الأعداء اقتفينـــا اثرهم طعناً وضربا واسراً حتى اضطر الذين امامنا إلى ان رموا بأنفسهم في النهر المذكور .

هذا ولما خلت الدار من الكفار وانتنت رائحة الديم من جيف اعداء الله وبرمم بهائمهم انتقلنا على بركة الله تعالى طالبين قندر (غندار) ام مدائهـم يوم السبت ٧ جمادى الأولى وقبل وصولنا اليها قابلنـا أهل الديار المذكورة أعلاه راغبين الأمان ورافعين الرايات البيض . وقد أبدى البعض الاغصـان الخضراء ثم لما قربنا اليهـــا قابلنا جميع كبرائها مسلمي الجبرته بالطاعـة والأذعان طالبين الأمان فأمناهم ... فدخلنا يوم الاثنين وجلنا فيها يمينـــا

وشمالاً فأعجبنا بما شاهدناه من القصور الشامخات واحرقنا فيها ٤٥ كنيسة ما عدا الكنائس التي احرقناها بالديار المذكورة عند مرورنا بها وهي تزيد على ٢٠٠ كنيسة » .

رجع حمدان ابو عنجة إلى مقر قيادته في القلابات بعد ان سجل هذا التقرير عن انتصاراته وخرج مرة ثانية بعد اربعة اشهر ولكن لم يتعرض له عدو فعاد الى القلابات . وكان الامبراطور يوحنا آنذاك في نزاع مع التليان الذين ثبتوا اقدامهم في مصوع وارتريا بتأييد من الانجليز ولكن مطامعهم كانت تمتد إلى كل الحبشة وخاصة فيما يتعلق باتصالها الخارجي ورأى ان يتصالح مع المهدية ليتفرغ لخطر التليان وخاطب حمدان في هذا الأمر بقوله « والآن فاذا أنا حضرت الى بلادكم وأهلكت المساكين ثم جئتم أنتم واهلكتم المساكين فما الفائدة من ذلك ... والواقع أن الأفرنج أعداء لنا ولكم فاذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم بل أخربوا دياركم . واذا ضربوكم وكسروكم فعملوا بنا كذلك . فالرأي الصواب أن نتفق عليهم ونحاربهم ونغلبهم . ويتردد التجار من أهل بلادنا بالمتاجر الى بلادكم وكذلك تجار بلادكم تتردد الى غندار لأجل المعايش والمكاسب لأهلكم ولأهلنا فاذا صار كذلك فهو غاية المنفعة لنا ولكم لأنكم أنتم ونحن في الأصول السابقة أولاد جد واحد فاذا قاتلنا بعضنا بعضاً فماذا نستفيد . فالأفضل والأصوب لنا ولكم أن نكون ثابتين في المحبة جسداً واحداً وشخصاً واحداً متفقين بعضنا مع بعض ومتشاورين بالشورة الواحدة ضد أولئك الذين يحضرون من بلاد الأفرنج والترك وغيرهم الذين يريدون ان يحكموا بلادكم وبلادنا مزعجين لكم ولنا . أولئك أعداؤكم وأعداؤنا نحاربهم ونهيهم ونحرس حدود بلادنا وممالكنا منهم ».

بسط يوحنا سياسة افريقيا للافريقيين ولكن دعوة المهدية في أساسها دين الاسلام وعلى طريقة المهدية . فحق المسلم الذي لا يدين بعقيدة المهدية

خارج ويجب محاربته فكيف لحمدان وهو يعرف النظرية الأصلية ان يهـادن أو يصالح يوحنا المسيحي وهم حاربوا الترك الذين يدعون قيادة الأمـة الاسلامية . ومات حمدان وخلفه في قيادة جيوش المهديـة في الجبهة الحبشية الزاكي طمل . وتيقن يوحنا بأن المهدية لا تهادن ولا تصالح فما عليه إلا ان يقابلها بتسيير جهازه الحربي لمنازلتها .وجهز الامبراطور حملة عظيمة واخترق الحدود غازيا ونشبت معركة من أشد ما لاقى الأنصار ولكنهم تذرعوا بالصبر والثبات حتى جرح يوحنا نفسه جرحاً مميتاً ادى إلى اشاعة الفوضى في معسكرهم وانفرط عقد نظامهم وارتدت الى القلابات ووراءها الأنصار يقتلون ويأسرون واستولوا على غنائم وأسلاب لا تحصى من نساء وعبيد وخيول وأسلحة وتاج الامبراطور نفسه . وكان لهذا النصر العظيم رنة فرح في أم درمـان ارتفعت معه روح المهدية الى قمتها .

انظمة الحكم :

كانت الدعامـة التي ترتكز عليها ادارة المهدية هي الشريعة الاسلامية كما يظن أنها تطبق في عهد النبي والخلفاء الراشدين ولذلك ضمن المهدي في خطاباته ومنشوراته وأحاديثه الكثير من أحكام الشريعة مأخوذة من الكتاب والسنة وأوصى أصحابه بأن يعرضوا ما جاء منه على الكتاب والسنة فما وافق فهو منه وما خالف فليس منه . وقبل وفاته حدد معالم السلطات في مجلس ضم الخلفاء والكبار ووجه خطابه للخليفة قـائلا : « أنت لك السيف وليعقوب الجيش وللقـاضي الكتب » يعني يكتب القاضي ليعقوب ليحضر المجرم بعد الشكوى ضده لينظر قضيته ثم يكتب جزاءه في ورقة يعلقها في عنقه ثم يرسله للخليفة عبدالله للتنفيذ . ويرأس السلطة القضائية قاضي القضاة والقاضي احمد كان أول من احتل هذا المنصب في حيـاة المهدي ومعظم سني حكم الخليفة ولكنه دخل في نزاع مع الأمير يعقوب أخو الخليفة عبدالله وأثبت يعقوب عليه الرشوة وأدخل السجن حتى مات . وخلفه الشيخ الحسين الزهراء ومـا

كان يعمل بمنشورات المهدي دائماً ولذلك اتهم بمخالفتها وكانت لها قداسة ومات أيضاً في السجن وبعده تحاشى العلماء المنصب .

والحكومة المهدية بيت للمال بل بيوت للمال عمادها الزكاة الشرعية فبيت المال العام يستمد دخله من أم درمان وما جاورها من القرى والبوادي وفائض بيوت مال الأقاليم ويصرف منه على موظفي بيت المـــال وعلى آل المهدي والخلفاء وعلى إعداد الجيوش للغزوات . وبيت مـال الملازمية وخصصت له أموال الجزيرة ومعظمها من الذرة ويصرف منه على حرس الخليفة الخاص . وبيت مال ورشة الحربية وترد اليه أموال سواقي الخرطوم وجنائنها وثمن سن الفيل الوارد من خط الاستواء وبحر الغزال ويصرف منه على صنع الذخيرة والأسلحة . وبيت مال الخمس ويستمد دخله من ايرادات المراكب والمشارع وأرباح ريش النعـــام والسن وثلث أرباح الصمغ وعشور البضائع الواردة من الخارج ويصرف منه على نفقات الخليفة الخاصة وأخصائه الأقربين .

وعمل في بيوت المال هذه الموظفون السابقون في العهد التركي في نفس الدفاتر وبنفس الطريقة في الحسابات تقريباً . وهناك مصنع صك النقود وظهر له مزورون قلدوها وكان يعقوب أخو الخليفة يشرف على كل هذه الأعمـال زيادة على رئاسته للجيش الذي بعد ان كان مقسما على رايات ثلاث كل منهـا تحت خليفة في عهد المهدي أصبح الان تحت اشراف الخليفة وعمليـاً يباشر أموره يعقوب . واستخدمت حكومة الخليفة كل الوابورات النهرية التي كانت للعهد التركي – المصري .

مقاومات سرية ضد حكم الخليفة :

ولعل من أهم حوادث المهدية هي مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ والتي مـات جوعاً فيها أكثر مما ماتوا في كل حروب المهدية وهي نتيجة سنتين متتاليتين من شح الأمطار وانشغال معظم الأيدي العاملة في الحروب في الجهتين المصرية والحبشية ورحيل أفواج كبيرة من البقارة من دارفور وكردفان لأم درمـان . وبفشل

الخليفة عبدالله في محاولة غزو مصر وبترحيل قبائل البقارة من الغرب لتكوين معظم الجهاز الحربي منهم وباسناد كل المناصب الهـــامة في الإدارة والجيش لأقربائـه وبتجريد زميليه الخليفة علي ودحلو والخليفة شريف من الأسلحة وقبل ذلك يموت المهدي مصدر الإلهام لروح المهدية — لكل هـذه العوامل مجتمعة نشأت مقاومة سرية لحكم الخليفة عبدالله عند البعض وموقف سلبي عند الكثيرين . والواقع أنه حتى في بداية عهده حدثت اتصالات سرية من بعض أعيان كردفان ومن زعيم الكبابيش وفي السنين الأخيرة من عبدالله ود سعد زعيم الجعليين كما قدمنا وكلها تهدف الى رجوع الحكم المصري للسودان غير ان السياسة الانجليزية آنذاك لم تر في هذه العناصر قوة تستطيع بهـــا مقاومة حكم الخليفة وان الوقت لم يحن بعد لاسترجاع السودان .

وكانت السياسة الانجليزية كما يمثلها مندوبها في مصر السير افلين بيرنـــج تعترف باستمرار السيادة العثمانية على السودان وان حكم المهدية لم يعترف بـه دوليا وشجعت التجارة بين القطرين لتبادل كل السلع ما عدا تصدير الاسلحة والذخيرة للسودان . وهذا الاتصال التجاري له اهدافه الجانبية حيث تمكن قلم مخابرات الجيش المصري من جمع المعلومات من الواردين والمترددين بين القطرين عن الحالة في السودان وتطور الحوادث فيها وأمدهم بمعلومات أوفى القس أوهرلدر وسلاطين باشا عندما تمكنا من الهرب الى مصر .

الفصل السادس

استرجاع السودان

لقد كان من ضمن العوامل الهامة في نجاح الثورة المهدية في السودان حالة مصر السياسة آنذاك كما فصلنا سابقاً . ففي الوقت الذي اشتعلت فيه الثورة في جزيرة أبا كانت حركة عرابي في مصر قد بدأت وتمكنت في آخر الامر من السيطرة على حكومة الخديوي توفيق . ولان قوتهم كانت ترتكز في الدرجة الاولى على موالاة الجيش لهم ما كانوا يسمحون بارسال نجدات لاطفاء الثورة في السودان . وشغلوا عن احداث المهدية بالتدخل الاوربي وبمناوأة الخديوي لهم . واخيراً تم للانجليز احتلال مصر والثورة في السودان تكسب مزيداً من الانصار وتنتصر في جولاتها مع جند الحكومة . ورأت انجلترا آنذاك ان مصلحتها تقتضي عدم التدخل في مسألة السودان لانها لا تريد ارتباطات اكثر مما لديها وخاصة أنها كانت تود الخروج من مصر بعد الاطمئنان على أحوالها وإجراء اصلاحات ضرورية وضمان طريق تجارتها الامبراطورية. لم يكن هذا رغبة منها في حرية مصر ولكن مصلحتها اقتضت ذلك. فمنتجات مصانعها لها سوق رائجة في كل أنحاء العالم والمواد الخام في أنحاء المعمورة تحت

تصرفهم . ولم تظهر مزاحمة لها في هذا الصدد من جانب الدول الاوربية الاخرى وأسطولها لا يزال سيد البحار ولها من الممتلكات والمستعمرات ما لا تغيب الشمس فيه ولم تظهر بوادر التكالب الاستعماري على أفريقيا بعد بشكل واضح في نظر مستر جلادستون . وفوق ذلك فمصر مفلسة آنذاك والتركة التي تركها إسماعيل مثقلة بالديون . فاذا كانت هذه نظرتهم لمصر في ذلك الوقت فالسودان مسألة فرعية للمسألة المصرية . هذا مجمل للحالة في مصر وللسياسة الانجليزية آنذاك .

ولكن في التسعينات من القرن الماضي تغير الوضع ، وبدأت الدول الاوروبية وخاصة المانيا تنافس انجلترا في الصناعة وفقدت بذلك مركزها المريح في هذا الصدد . وارتبط توسع التجارة في المنتجات الصناعية بالتوسع في المستعمرات وبدأت هذه الاقطارالاوربية من قواعدها على سواحلأفريقيا تتوغل للداخل في اكتساب مزيد من الممتلكات . ورأت انجلترا منمصلحتها والحالة كما وصفناها أن تغير سياستها نحو مصر فهي الآن بالرغم من وعودها السابقة بالجلاء صممت على الاحتلال الدائم وبالتالي لا بد لها من حماية وادي النيل بأكمله . فاذا ما احتلت أية دولة أوربية أي جزء من أعالي النيل وأقامت عليه منشآت للري ربما تتأثر الزراعة في مصر ويجب ان تتجه سياستها نحو تنحية الدولالأوربية من وادي النيل حتى يحين الوقتلاسترجاع السودان .

بداية التكالب الاستعماري :

والخطر على السودان ووادي النيل كان آنذاك من ناحيتين من ايطاليا وهي تحتل ارتريا : ومن فرنسا في أفريقيا الاستوائية الغربية أما إيطاليا فكانت لها مطامع أقليمية في كسلا وما حولها ويخشى بيرنج أن التوسع الايطاليمن كسلا غربا ربما يصل الى نهر عطبرة أحد روافد النيل أو الى مجرى

النيل الرئيسي . وبحجة السيطرة على كل الاراضي التي تحتلها قبيلة ما ستصل إيطاليا الى مجرى النيل . أما فرنسا فلم تكن تهدف في اتجاهها نحو النيل الا الضغط السياسي على انجلترا واجبارها الجلاء عن مصر . وكانت التسعينيات من القرن الماضي الى ان تحركت جيوش كتشنر من مصر لاسترجاع السودان في سنة ١٨٩٦ فترة النزاع والمفاوضات على اقتسام القارة الافريقية بين الدول الاستعمارية . ونجحت انجلترا في أن تقنع إيطاليا بنظرية ان السودان لا زال جزءاً من الامبراطورية العثمانية في العرف الدولي وتابعاً لمصر وسمحت لايطاليا باحتلال كسلا مؤقتاً لتأمين مراكزها في أرتريا . ولكنها ستسلمهـا للجيش المصري عندما يحين الوقت لاسترجاع السودان . أما فرنسا فاستمرت تعارض وتتقدم حملتها الى اعالي النيل الى ان احتلت فشودة في الوقت الذي كانت فيه قوات كتشنر تتقدم نحو أم درمان وكانت فترة توترت فيها العلاقات بـين انجلترا وفرنسا حتى خشي ان تشتعل الحرب بين الدولتـين ولكن في آخر الأمر خضعت فرنسا وجلت عن فشوده .

أما الحوادث التي ادت الى تسيير الجيش المصري لاسترجـاع السودان فكانت مفاجأة تحت ظروف خارجية. فقد شبت حرب بين ايطاليا والحبشة. وفي ١ مارس سنة ١٨٩٦ فازت الحبشة بنصر عظيم في موقعة عدوة واستنجدت إيطاليا بانجلترا ليقوم الجيش المصري بمناورة عسكرية من سواكـن أو من حلفا ليجذب انظار الخليفة عبدالله بعيداً عن كسلا وليمنع اتحاد دولتـين أفريقيتين من القضاء على نفوذ دولة أوربية وهي ايطاليا . ورأت السياسـة الانجليزية آنذاك أن تلبي النداء ولكن لتصطاد عصفورين بحجر واحد حسب تعبير اللورد سالسبري بأن تقوم بحملة استرجاع لدنقلة وفي الوقت نفسه تعاون ايطاليا في محنتها .

كتشنر يتحرك لاسترجاع دنقله :

وصدرت الاوامر لكتشنر بأن يتحرك ويبدأ عملياته المؤدية للاسترجاع

قبل ان يعلم الخديوي عباس الثاني وقبل ان تعلم الحكومة المصرية . وكان الجيش المصري على استعداد من حيث الكفاءة الحربية والمعلومات ولكن لا بد من تصريح صندوق الدين في القاهرة لسحب نصف مليون جنيه كنفقات ضرورية للحملة . ووجدت فرنسا فرصتها بأن عارض مندوبها في الصندوق وأقنع الاغلبية برفض الطلب واضطرت انجلترا لتمد مصر بالنفقات كدين وسنرى أخيراً انها جعلته مساهمة منها في فتح السودان لترفع علمها مع العلم المصري .

تجمع الجيش المصري في وادي حلفا نقطة الحدود وقاده كتشنر سردار الجيش المصري بنفسه ويتكون الجيش من وحدات مصرية وأخرى سودانية واستعرض الخديوي آخر فوج يرحل الى الحدود في القاهرة يوم ١٥ مارس سنة ١٨٩٦ ، ومن هذا تتضح السرعة التي اتسمت بها العمليات الحربية لاستعادة السودان. فبينما كان لورد سلسبري رئيس الحكومة الانجليزية ووزير خارجيتها يصرح في مكاتباته في آخر يوم من فبراير سنة ١٨٩٦ بأن أسلم سياسة لهم فيما يختص باستعادة السودان هي الانتظار وترقب تطور الحوادث واذا باندحار ايطاليا في موقعة عدوة في اليوم التالي أدى الى بدء العمليات الحربية في فترة نصف شهر منذ حادث عدوة .

وكانت أول نقطة لقوة المهدية تقيم في فركة بقيادة حمودة ادريس وقبعوا في أماكنهم ينتظرون ملاقاة كتشنر ولم يسمحوا لأنفسهم بغارات خاطفة على قوة كتشنر وهي تمد الخط الحديدي لتسهيل خط مواصلاته . وفي أول لقاء مع حامية فركه انتصر الجيش المصري وواصل زحفه نحو الحامية التالية وهي دنقلا . ولكن قبل وصولهم لها تفشى وباء الكوليرا في الجيش ونتيجة لذلك مات منه أكثر من الذين ماتوا في حروبهم مع قوات المهدية . وعندما تبين لود بشارة أمير دنقلة ان قواته لا تستطيع الصمود للجيش المصري أخلى المدينة ودخل كتشنر في دنقلة دون مقاومة . ولم يجدوا مقاومة فيما بقي من

اقليم دنقلة حتى وصلوا الى مروي وانتهت بذلك العمليات الحربية وهي استرجاع دنقلة ، ووزع الجند على مناطق المديرية للراحة والاستجمام انتظاراً لتعليمات جديدة .

الجيش الفاتح يستأنف زحفه داخل السودان :

وبدأت الاتصالات بين بيرنج في القاهرة والحكومة البريطانية في لندن عن الخطوة التالية وتقرر ان يستأنف الجيش زحفه لاسترجاع بقية السودان حيث ان منطقة دنقله مكشوفة وستتعرض لهجمات الأنصار وعلموا بنشاط الفرنسيين في زحفهم نحو أعالي النيل لاحتلال فشودة . والمشكلة الرئيسية التي تواجه كتشنر لتنفيذ المرحلة التالية من عملياته الحربية هي المواصلات .فالتقدم من دنقلة عبر صحراء بيوضة الى المتمة ومنهـــا لأم درمان تحوطه عقبات ومشاكل النقل والميــاه لجيش بعدد كافي يقضي على قوات الخليفة . ورأى كتشنر ان اسلم خطة هي مد خط حديدي بين حلفا وأبو حمد ومنها يمتد الخط جنوبا محــاذيا للنيل أطول مسافة ممكنة ، وبدأت أورطة السكة الحديد في العمل بتمديد الخط حتى اذا ما قارب الخط أبو حمد أصبح بحكم الضرورة ان تتقدم فرقة من الجيش عبر أرض المناصير لاحتلال أبو حمد . وقاموا بالمهمة . ومن حامية أبو حمد وجدوا مقاومة شديدة ولكن أسلحتهم الحديثة وتدريبهم مكنهم من النصر وتم اتصال الخط بين حلفا وأبو حمد فيما بعد . والغريب ان الانصار تركوا جيش كتشنر يمد خطه الحديدي دون مناوشات .

وانزعج أمير بربر وأخلاها متقهقراً الى ام درمان حيث تراءى لـه ان فرقة من الجيش المصري ربما تعبر صحراء البيوضة وتحتل المتمة وبهذا ينعزل في بربر ولا يتم اتصاله بأم درمان ورأى ان يخلي بربر ويصل ام درمان قبل عملية العزل هذه . ووصلت الفرق الأمامية من العربان المتحابة ووجدت بربر خالية من الانصار فاحتلتها قبل ان تصل قوات الجيش المصري اليهـــا . وباحتلال بربر انسحب الأنصار من تلال البحر الأحمر وبذلك تمكنت فرقة من

الجيش المصري ان تصل بربر من سواكن وتحركت قوة مصرية من سواكن نحو كسلا ووصلتهـــا في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٧ واستلمتها من التليان حسب الاتفاق السابق وانتهت سنة ١٨٩٧ . وكانت قوات كتشنر تحتل السودان الشمالي حتى مدينة بربر وفي الشرق احتلت كسلا وكانت طرق مواصلاتهم للخارج الى حلفـــا بالسكة الحديد والى سواكن بطريق القوافل التقليدي .

استعدادت الخليفة :

ولنترك الجيش المصري يحتل مواقعه التي ذكرناهـــا ونرجع لأم درمان لنرى استعدادات الخليفة عبدالله لهذا الغزو . من تجارب المهدية السابقة في حملة ولسلي لانقـــاذ غوردون رأوا ان اي جيش يقوم بغزو لأواسط السودان من الجبهة المصرية لا بد من ان يركز هجومه من دنقلة عبر صحراء بيوضة حتى يلتقي بالنيل عند المتمة أو ما جاورهـــا ولذلك بني الخليفة خطة لمقاومة هذا الغزو على ملاقاته في المتمة وكان أن عرض على عبدالله ود سعد زعيم الجعليين أحد أمرين : إمـــا ان يتكفل الجعليون برد هذا الاعتداء بأنفسهم وإما او يخلوا المتمة وينتقلوا لشندي لتحتلهـــا قوات ترسل من أم درمان . وبعد مفاوضات في هذا الصدد قبل عبدالله ود سعد العرض الأخير وفارق أم درمان الى موطنه على هـــذا الأساس . وبذلك جهز الخليفة حملة كبيرة بقيادة ابن عمه محمود ود احمد لتغادر أم درمان لاحتلال المتمة بعد اخلائها وتلاقي الجيش المصري هناك وتصده عن التقدم نحو أم درمان . غير ان عبدالله ود سعد لم يكن راضياً عن الخطة وبوصوله للمتمة صمم ان يدافع عنهـــا ضد قوات المهدية بمن تبعه من أهله الجعليين . وتبينت لمحمود عندما اقترب من المدينة مظاهر المقـــاومة ودخل معهم في معركة كانت نتيجتها المحتومة تغلبه على الجعليين ومذبحة المتمة المشهورة وعسكر فيـــها بجيشه وانضم اليه عثمان دقنة من شرق السودان بعد ان اجلته قوات الجيش المصري منه .

وصل الخط الحديدي الى أبي حمد وواصلت أورطة السكة الحديد بالجيش المصري مده جنوباً حتى وصل محطة دقش بمنطقة الرباطاب ولم يكن كتشنر ليسرع في الزحف نحو المتمة ورأى ان يتريث حتى يمتد الخط لأطول مسافة ممكنة حتى يكون النقل مضموناً ولم تظهر بوادر تدل على ان محمود سيتقدم شمالاً من المتمة . ولكن وصلت اشاعة واستقرت في مقر قيادة كتشنر تفيد ان الخليفة قرر الزحف شمالاً للانضمام لجيش محمود في المتمة لملاقـاة الجيش المصري في بربر . وهذا يعني ان كل قوة المهدية ستتقدم للشمال . وشعر كتشنر ان الجيش المصري المتجمع في بربر لم تكن له المقدرة لملاقاة جهـاز الخليفة الحربي بكامله . فأصدر أوامره في الحال لكل الفرق المعسكرة في حاميات دنقلا بالسفر حلفا ومنها على الخط الحديدي لتتجمع في بربر ، ومع ذلـك طلب على جناح السرعة تعزيزه بفيلق من الجيش الانجليزي ورحل الفيلق من مصر وانضم الى الجيش المصري عن طريق الخط الجديد . ولم تكن هذه الترحيلات السريعة في حيز الامكان قبل هذا الخط الذي كان له أثره الفعـال في نجاح حملة كتشنر وفي ربط السودان بمصر بعد ذلك .

موقعة النخيلة :

وظهر أنها كانت مجرد اشاعة وتقدمت قوات محمود بعد تردد واتصالات مع ام درمان شمالاً لملاقاة جيش الغزو . والخطة التي وافق عليهـا الجميع وهي فكرة عثمان دقنة هي ان تضرب جيوش المهدية في الصحراء وتعبر نهر أتبرة في مكان بعيد عن ملتقاه بالنيل الرئيسي ثم يهبطون على النيل شمـال تجمعات الجيش المصري لقطع خط رجعته ولتخريب خط مواصلاته ، وفعلاً سار محمود محاذيا النيل الى العالياب ومنهـا الى الشمال الشرقي حتى النخيلة على نهر عطبرة . وعلم كتشنر بالخطة وتجمع في عطبرة وسار بمحاذاة نهر عطبرة حتى لا يمكن جيش الأنصار من الالتفاف وراءه . توقف محمود في النخيله وحفر الخنادق حيث تيقن له ان تنفيذ الخطة كما وضعت أصبح مستحيلاً وصمم على

الدفاع في خنادقه . ومرت الأيام وكل من الجيشين ينتظر في تشكيل دفاعي لرد هجوم الفريق الآخر . ودارت الرسائل السلكية بين كتشنر وكرومر فيما يجب عمله ومن روح هذه الرسائل يتضح ان كلا منهما لا يريد تحمل مسئولية العمل . فكتشنر يشرح الوضع العسكري ويطلب التعليمات وكرومر من جانبه يسند الأمر له ليقرر الهجوم او التريث .

وأخيراً قرر كتشنر مهاجمة محمود في خنادقه ونشب قتال شديد ضحى كتشنر فيه بالكثير ولكنه نجح وتغلب على قوة المهدية في صباح ٦ أبريل سنة ١٨٩٨ في النخيلة على نهر عطبرة . وذهبت الجنود لتأخذ قسطاً من الراحة ما بين عطبره والعبيدية ريثما تستمد للتقدم صوب عاصمة المهدية . أما الخليفة فقد صمم على البقاء في أم درمان والدفاع عنها وجلب الكثير من جند حامياته في الاقاليم لتعزيز قوته . وبنيت الطوابي على النيل لتعرقل سير وابورات العدو وحاول بث الالغام في مياه أم درمان وتجمع ما يقرب من الستين ألفاً جلهم من الجهادية السود وقبائل البقارة .

موقعة كرري :

وطلب كتشنر تعزيز قوته بفيلق آخر من الجنود الانجليزية وزحف في أرض صديقة وهي منطقة الجمليين بالوابورات وعلى الخيل والأبل والأرض بالبر . وتكونت فرقة من العرب المتحابة بشرق النيل لتحميهم من الشرق ونشطت مخابرات الجيش لتنقل التطورات في أم درمان وقامت الوابورات برحلات استكشافية على النيل . ووصلت الوابورات قبل مقدم الجيش وصوبت مدافعها نحو قبة المهدي وحطمت أعلاها لتنهار روح الأنصار المعنوية حسب رأيهم . وتكاملت قوات كتشنر في كررى شمال أم درمان وتشكلت على شكل نصف دائرة طرفاها على النيل وأقيمت زريبة من الشوك كتحصينات في محيط الدائرة والمؤن والذخائر وبهائم النقل في الوسط واصطفت

الوابورات على النيل كقطر لنصف الدائرة ولتوجه أنوارها الكاشفة بالليل في السهول ومنحدرات التلال أمام الزريبة .

تحركت قوات الخليفة الى شمال المدينة وعسكرت في التلال البعيدة من النهر ومن زريبة كتشنر وبات الفريقان ليلهم كل في مواقعه وخشي كتشنر أن يهاجمه الخليفة بالليل ولذلك بث جواسيسه لتشيع في معسكر الخليفة أن الجيش الغازي سيهاجمهم بالليل ليتخذوا موقف الدفاع ولا تحدثهم أنفسهم بالهجوم الليلي . وبدأ ضياء ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ يبدد الظلام . وبعد أن صلى بانصاره صلاة الفجر امر الخليفة جيشه بالهجوم . وما ان تحركوا يهللون ويكبرون في اتجاه الزريبة حتى بدأت مدافع كتشنر البعيدة المدى ترميهم ثم بدأت مدافع المكسيم وعندما كانوا على مرمى رصاص البنادق كان كل الخط يطلق الرصاص بسرعة حتى ان البنادق صارت تحمى من سرعة الاطلاق ويناولها الجنود للاحتياطي وراءهم ويتسلمون أخرى يستمرون في اطلاقها بنفس السرعة وهكذا . كل ذلك لأن الأنصار ما كانوا يتراجعون وظلوا في تقدمهم فوق جثث أخوانهم ليصلوا الزريبة ويخترقوها . ولكن بالرغم من ضخامة التضحيات التي بذلوها لم يتمكنوا من الوصول اليها واضطر الباقون الى التقهقر بعد أن تركوا ما يزيد على عشرة آلاف شهيد في ساحة المعركة من بينهم يعقوب أخو الخليفة ومحمد بن المهدي . وكانت هذه أضخم مقاومة افريقية ضد التكالب الاستعماري .

وأثناء تشكيله للسير لأم درمان ودخوله فاتحاً تحرك الجيش ولكنه نفذ من مقاومتين إحداهما من الأنصار المختبئين وراء التلال والثانية كمين نصبه المدندوة بقيادة عثمان دقنه في خور شمبات للفرسان الانجليز ومن ضمنهم ونستن تشرشل . ونفذوا منه اخيراً بعد تقديم الكثير من الضحايا . وأباح كتشنر المدينة لجنده ثلاثة ايام وحدثت مآس من النهب والسلب واستباحة الاعراض . أما الخليفة فلم يشأ الاستسلام فجمع عائلته وصحبه وأهله الأقربين

وبعض من حرسه الخاص واتجه للغرب ليواصل النضال من هناك . وطاردته فرقة من الجيش ولكنها لم تلحق به ورجعت ادراجها . ولو ان الخليفة بقي متنقلا في ربوع الغرب أكثر من عام بعد موقعة كرري هذه الا انها كانت الموقعة الحاسمة والتي جعلت سلطة الجيش الفاتح فوق كل قوة في السودان .

لماذا رفع العلم الانكليزي مع العلم المصري ؟

عبر كتشنر النيل الى الخرطوم وفي خرائب سراي الحكدار اقيمت صلاة على روح غوردون ورفع العلمان المصري والانجليزي وكانت هذه مفاجأة لمن شهدوا حفلة رفع العلمين . وقد علمنا ان الجيش المصري حين تقدم نحو دنقلة فاتحاً كانت تسمى هذه العملية استرجاعا لأملاك الخديوي التي فقدها بقيام الثورة المهدية ولم يعترف بهذا الفصل دوليا وقد رفع العلم المصري وحده في دنقلة وفي بربر وفي كسلا . فما الذي طرأ على الموقف بعد واقعة عطبره في أبريل سنة ١٨٩٨ . حيث احتل العلم الانكليزي مكانه جنباً إلى جنب مع العلم المصري ؟ مفتاح الموقف برقية بعث بها لورد سلسبري لكرومر في ٣ يونيه سنة ١٨٩٨ ينبئه فيها بأنه تسلم رسالة من سلطان تركيا ظاهرها الود ولكن في ثناياها وبين أسطرها تلميحات تشير الى انه سوف يحرج موقف بريطانيا في مسألة السودان بما له من نفوذ شرعي على الخديوي ويرجح سلسبري أن فرنسا كانت وراء هذا الموقف . وتفاديا لهذا الحرج الذي تشير اليه تركيا يرى سلسبري أن يرفع كتشنر العلمين الانكليزي والمصري جنباً إلى جنب حين يحتل عاصمة المهدي ويرفعها معاً في بقية أجزاء السودان . ويعتبر هذا اعلانا بأن الفتح تم على يد الحكومتين وبقواتها المشتركة وبذلك يصبح لانجلترا حق قانوني بموجب اشتراكها في العمليات الحربية من ناحيتين : ناحية الفرق الإنجليزية التي أسهمت في الحرب والناحية المالية التي قدمتها انجلترا للصرف على نفقات الحملة والتي كانت معتبرة دينا على الحكومة المصرية

إلا أنها الآن صارت مساهمة مالية منها .

وتردد كرومر في بادىء الأمر في قبول هذا الاقتراح . وحجته أنه طالما ظلت لبريطانيا السلطة الفعلية في مصر وبالتالي في السودان فلا داعي لمثل هذه المبررات القانونية ولكنه عاد بعد أسبوع وأعجب بالفكرة واظهر ارتياحه وموافقته عليها وصدرت الأوامر لكتشنر وهويتجه صوب ام درمان ان ينفذها . وبعد موقعة كررى بأيام قليلة وصل سيد صغير وهو من امراء الخليفة في وابور طالباً من الخليفة نجدته حتى يقاوم احتلال البيض الذين رفعوا علماً مثلث الألوان على قلعة فشودة . وهذه هي فرقة الكابتن مرشان الذي زحف من افريقيا الفرنسية الاستوائية تنفيذاً لسياسة الحكومة الفرنسية باحتلال فشوده كوسيلة للضغط السياسي على انجلترا في مصر . وعلم الخليفة بمرشان وبعث بوابورين لطرد المحتلين في نفس الوقت الذي يواجه فيه زحف كتشنر من الشمال . ولكن قوات الخليفة لم تتمكن من طرد الفرنسيين ورجع سيد صغير قائد البابورين على جناح السرعة بواحد منها وترك الثاني في الرنك ليطلب قوة كافية للتغلب عليهم . ولكنه أتى بعد موقعة كررى ووجد كتشنر بدلاً من الخليفة .

مشكلة فشودة :

وكانت تعليمات كتشنر تأمره ان يخف بنفسه بعد احتلال أم درمان إلى فشودة لملاقاة الفرنسيين وها هو سيد صغير قد أكد له وجودهم هناك. ونزل بأورطة سودانية من الجيش المصري في الوابورات وتقابل مع القائد الفرنسي ورفض الأخير التنازل وأبى ازال العلم المثلث الألوان من ساريته . وإزاء هذا الاصرار على الرفض ترك حامية من قوته ترابط بالقرب من الفرنسيين ورجع تاركاً الأمر تعالجه بريطانيا على المستوى الدبلوماسي . وكانت فترة حرجة في العلاقات بين الدولتين كادت تؤدي الى الحرب بينهما . ولكن فرنسا

خضعت في آخر الأمر لأن خطر ألمانيا في حدودها الشرقية يحتم عليها عدم الخوض في نزاع يقود الى حرب انجلترا ولأن روسيا حليفتها آنذاك لم تكن على استعداد لتخوض حربا من أجل فشودة ومع ذلك استمرت حقبة الجفوة بين الدولتين الى ان التأمت الهوة في سنة ١٩٠٤ بالوفاق الودي حيث تركت فرنسا لانجلترا الحرية في مصر مقابل أن تتصرف فرنسا بما تراه في مراكش . واكراماً لخاطر فرنسا شطبت انجلترا اسم فشودة من خريطة السودان واستبدلته بكدوك .

وكان على كرومر بعد أن تم الفتح أن يضع هيكلا للادارة الجديدة في السودان على أساس اشتراك الدولتين الانجليزية والمصرية فيها . وفي زحمة النصر لم يقابل رفع العلمين إلا باعتراضات خافتة . ووضع كرومر بمعاونة المستشار القضائي الانجليزي للحكومة المصرية نص اتفاقية بين انجلترا ومصر تدار بموجبها البلاد وبعث بها لانجلترا للتصديق النهائي عليها . وأثناء زيارته السودان في ٤ يناير سنة ١٨٩٩ خطب في جمهور من السودانيين في أم درمان قائلا : « ترون أمام أعينكم الآن ذينك العلمين يرفرفان من أعلى هذا المنزل وفي ذلك دلالة واضحة على انكم ستكونون تحت حكم جلالة ملكة بريطانيا وخديوي مصر في المستقبل » .وتم التوقيع على اتفاقية الحكم الثنائي في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ من كرومر ممثلا لبريطانيا وبطرس غالي باشا وزير خارجية مصر ممثلا للخديوي .

أسس اتفاقية الحكم الثنائي :

ويجدر بنا ان نلم بالأسس التي وضع كرومر الاتفاق عليها لأنه وضحها في المجلد الثاني من كتابه « مصر الحديثة » . رأى ان الادارة الجديدة في السودان يجب ان تسيطر عليها أيادي بريطانيا حتى لا تعود المظالم التي ارتكبت في العهد التركي – المصري . وهو يرى ان تلك المظالم هي التي ساهمت بقدر

عظيم في قيام الثورة المهدية . وعليه فالسيادة التركية على السودان يجب ان تختفي ولا يفتح الطريق للامتيازات الأجنبية وقد عانت مصر ما عانت منها. والطريق الواضح في رأي كرومر هو ان يضم السودان الى الامبراطورية البريطانية بالرغم من ان الجيش المصري والخزينة المصرية تحملتا العبء الأكبر في سبيل الاسترجاع . فالجيش المصري ما كان ان يصل الى هذه الدرجة من الكفاءة الا بفضل تدريب الضباط الانجليز الذين قادوه الى النصر . والخزينة المصرية ما استقرت وبدأت تفيض وارداتها على مصروفاتها الا بفضل الإدارة الانجليزية . ويكفي مصر ضمان حدودها الجنوبية وقد كانت معرضة لغزاوت المهدية وضمان وصول مياه النيل الضرورية لزراعتها .

ولكن من الجانب الآخر يرى كرومر ان ضم السودان الى الامبراطورية البريطانية سيثير اشكالاً دولياً وخاصة من جانب فرنسا التي أمرت بسحب جنودها من قلعة فشودة استجابة للحجة القائلة بأن السودان رجع للأملاك الخديوية . والسودان في حقبته الأولى بعد الفتح سيحتاج الى أموال طائلة للصرف على إدارته ومصر هي التي تنفق عليه ولا تعتزم بريطانيا بتاتاً المساهمة في الصرف عليه ما عدا الـ ٨٠٠ ألف جنيه التي جعلتها ثمناً لرفع علمها . وفوق ذلك فكرومر عرف من تجاربه في مصر ان انجلترا تستطيع ان تسيطر سيطرة كاملة على شئون السودان دون الحاجة الى ضمه للامبراطورية . ففي مصر نفسها لم يكن لها مركز قانوني . فالسيادة تركية والعلم تركي والنقد المتداول تركي والحكومة الشرعية التي تستمد قوتها القانونية هي حكومة الخديوي الذي يعين بفرمان من السلطان العثماني وتدير البلاد حكومة تتمتع برضاء الخديوي ، ومع ذلك فالسلطة الحقيقية في يد كرومر وأعوانه من المستشارين الانجليز يؤيده جيش الاحتلال .

على هذه الأسس التي وضحناها وضع كرومر نصوص الاتفاقية في قالب يكفل السيطرة الانجليزية الكاملة ويبعد السيادة التركية والامتيازات الأجنبية

ويرضي بعض الشيء الأماني المصرية والاحتجاجات الدولية فمقدمة الاتفاقية تؤكد اشتراك انجلترا في ادارة السودان بحق الاشتراك في الفتح والسيادة لم تذكر بشكل واضح ولكنها عملياً تتركز في انجلترا ومصر مجتمعتين . ثم تلي المقدمة البنود التي عينت الحدود ورفع العلمين على دور الحكومة وإبعـاد سلطة المحاكم المختلطة وغيرها . ولكن أهم بند فيها هو السلطات الواسعة التي أعطيت للحاكم العام الذي ترشحه بريطانيـا وتعينه مصر ولا يفارق منصبه الا بتأييد الطرفين . فانجلترا احتفظت لنفسها بحق الترشيح ومرشحها يكون انجليزياً دائمـاً وما على مصر الا ان تتم مراسيم التعيين وليس هنـاك فقرة تشير الى ما يحدث لو امتنعت مصر عن التعيين . ولم تظهر أصوات احتجاج من الجانب المصري على الاتفاقية في سنة ١٨٩٩ .

ولكن في مفتتح القرن الحالي وفي ٢ ينـاير سنة ١٩٠٠ صدرت جريدة اللواء لمصطفى كامل . وتعالى صوت مصر الوطني بعد ان كان خافتاً أثنـاء عقد الاتفاقية وأثناء تنفيذها في سنتهـا الأولى . وكانت الحرب دائرة على أشد ما يكون عنفاً وشدة بين الانجليز والبوير وكان أن احرز البوير انتصارات على الامبراطورية البريطانية . واللواء تغمز وتعرض بتقلص النفوذ البريطاني وتنشر بحروف واضحة ما يصل اليهـا من أنباء القتال وانتصارات البوير .

وفي يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٠٠ نشر مصطفى كامل خطاباً ناريا لمناسبة مرور عام على اتفاقية السودان قال فيها :

« وان اكبر أيام الشقاء في تاريخ مصر وأسوأ تذكار يهيج في نفوس المصريين الأحرار الآلام والأشجـان هو يوم ١٩ يناير يوم تذكار اتفاقية السودان . ذلك اليوم المشؤوم الذي أعلنت فيه الحكومة الخديوية للأمة المصرية وللعالم كله ان السودان صار مستعمرة انجليزية بالفعل وان المشاق الهائلة والاتعاب الجسيمة والأموال البـاهظة والدماء الطاهرة التي صرفت في سبيل استرداده قدمت هدية من مصر للدولة البريطانية . فما أعظمك يا مصر كرماً واكبرك بلاء وهما » .

تحركات الخليفة واستشهاده :

والآن لنرجع للخليفة عبدالله ونرقب تحركاته بعد ان ترك أم درمان بعد واقعة كرري وحاولت فرقة من جيش كتشنر اللحاق به وفشلت . حصر الخليفة تحركاته في مديرية كردفان لأن علي دينار أحد أمراء دارفور فر من معتقله في أم درمان واسترجع عرش آبائه وأجداده هناك . وقف الخليفة في أول الأمر في أبي ركبة غرب كوستي حيث ترقد رفـــات والده ليجمع اليه أتبـــاعه المخلصين . ومن هناك اتصل بالختيم موسى قائد حامية الأبيض ورحل اليه بأنصاره وجهـــاديته وبعث الى قائده في منطقة القضارف أحمد فضيل بقوله :

«فنعلمك ايها الحبيب أنا عنك سائلون ولك بالخير والبركة داعون وما زلت ملحوظاً منا بعين الرضى ومزيد الاكرام لما أنت عليه من القيـام بأمر الدين وبذل الهمة فيه فجزاك الله عن ذلك خيراً وهداك سيراً وشكر مسعـــاك وحفظك وتولاك . ثم نعلمك أيها الحبيب أننـــا بحمد الله تعالى فيمن معنا من الأنصار بخير وقد انحزنا عن الأعداء بعد حصول الحرب بيننـــا وبينهم الى جهة دار الجوامعة بنواحي المحل المسمى بالغبشة . فنحن الآن به في أمن وأمان ومزيد اطمئنان . وليس القصد من حضورنا في هذه الجهـة المذكورة إلا التحيز عن الأعداء أخذاً بالحزم . وإلا فليس القصد ان شاء الله إلا إعادة الكرة على الاعداء المخذولين ومحاربتهم حتى ينتصر الدين ان شاء الله تعـــالى ويهلك الكافرون » .

وتنقلات أحمد فضيل في السنين الأخيرة من حـــكم المهدية وبعد سقوط أم درمان برهنت على ان هناك من اخلصوا للمهدية حتى الرمق الاخير مخاطرين ومغامرين بأرواحهم . فقد كان قائد حامية الشرق في القضارف فاستدعاه الخليفة عندمـــا علم بتقدم كتشنر في دنقلة لينضم الى جيش الخليفة وبتقدم

الجميع شمالاً لملاقاته اذا رؤي ذلك . ولكن تقدم بارسنز باشا من سواكن الى كسلا غير الموقف ورجع احمد فضيل الى مقر قيادته في الشرق ليمنع تقدمه . وبعد موقعة عطبرة واستئناف كتشنر السير نحو أم درمان استدعى احمدفضيل مرة ثانية بمعظم جيشه لتعزيز ام درمان وترك حامية في القضارف تحميها غير انه سمع بسقوط ام درمان عندما وصل رفاعه وسار جنوبـــاً والتقت به وابورات الجيش في أبو حراز ومنعته من العبور الى الجزيرة واتجـــه نحو القضارف ليجد بارسنز باشا احتلها . فبقي معسكراً في عصار بالقرب منها .

وعلم كتشنر عند رجوعه من فشودة بوجود احمد فضيل في عصار يحاصر القضارف فبعث بسرية الى هنـــاك لنجدة القضارف ولكن أحمد فضيل لم ينتظرهـــا بل اتجه الى الجنوب الغربي عله يشق طريقه ويتصل بالخليفة في كردفان وعند الرصيرص تمكن بعد جهد من عبور النيل الازرق الى الجزيرة بعد ان هجره بعض أتباعه . واخترق الجزيرة حتى وصل النيـــل الأبيض وهناك قابل وابور المتمة راجعة من فشودة فتخاذل بعض أتباعـــه وسلموا أنفسهم وعبر النيل الأبيض وبعض المخلصين له والتقوا بالخليفـــة عبدالله . وحاول جيش الفتح تسيير حملة لكردفان للقضاء على قوة الخليفة يقودهـــا الكولونيل كتشنر أخو السردار ولكنهم خافـــوا ما حدث لجيس هكس ورجعوا أدراجهم .

ومن دار الجوامعة في كردفان شق الخليفة طريقه في جبال النوبة فقاومه بعضهم ولكنه وصل قدير دار الهجرة الأولى للمهدي . وما ان استقر هناك حتى جهزت الحكومة جيشاً من ثمانية آلاف جندي حشدتهم في كاكا على النيل الأبيض ورحل جزء منهم الى جبل فنقر بين النيل وقدير . غير أن الخليفة اتجه شمالاً من قدير ينوي مهاجمة أم درمان فرجعت الحملة عندماعلمت بمبارحته لقدير . وراقبوا حركاته حتى علموا بوجوده في دار الجمع بالقرب من كوستي . وقاد ونجت حملة تلاقيه وتصده عن أم درمان أو تقضي عليـــه .

والتقى الفريقان في ام دويكرات بالقرب من منهل جديد ودارت الموقعة في فجر ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ ووقف الأنصار وقفتهم الأخيرة أمام رصاص الجيش الفاتح . وعندما ايقن الخليفة بالنهاية المحتومة لم يشأ ان يقع أسيراً ويعاني مذلة الأسر فأفترش فروته وجلس عليها وحوله كبار المخلصين الذين ظلوا على ولائهم إلى آخر لحظة في حياتهم ينتظرون قضاء الله وقدره مستسلمين للقوة الالهية بعد ان جاهدوا وصبروا وصابروا فكانت أروع خاتمة .

وعهد الخليفة كمثل كل عهود الثورات على أنظمة المجتمع يرافقه العنف ولا يقبل الا الخضوع والاذعان ولا مكان للمخالفين فيه . وكان طبيعيا الا يرضى كثير عن الشرائع الصارمة وكان طبيعياً ألا يرضوا بخراب الدنيا وعمار الآخرة وهم ألفوا نعيمها وهناك فريق آخر من أولئك الذين اشربت ارواحهم بتعاليم المهدي وجعلوها فلسفتهم في الحياة واقتنعوا بما جاء فيها . ورأوا في نظام المهدية المثل الأعلى للحياة الفاضلة ونعموا وارتاحوا لحكمها . والخليفة ورث هذا النظام المتكامل من المهدي بأن ينبذ أنصاره نعيم الدنيا ويجاهدوا في سبيل الله ويفارقوا الأهل والولد لرفع راية المهدية والتضحية بنفوسهم من أجلها . وهو أول من آمن برسالة المهدي والآن حمل المسؤولية وحده فلا تنكب لطريق المهدي ولا تعديل في تعاليمه ولا بد من القيام بأمر الجهاد كما كان ينوي المهدي . وبديهي أن ينحي الكثيرين من الحكم ويجردهم من اسلحتهم اذا بدت له ظواهر أنهم ينفسون عليه هذه المكانة أو يتآمرون ضده . هذه كلمة انصاف للخليفة عبدالله الذي ختم حياته بتلك النهاية الرائعة .

الفصل السابع

الحكم الثنائي

حدد لورد سلسبري ببرقيته التي ذكرناها لكرومر في يونيو سنة ١٨٩٨ العوامل التي دفعته لرفع العلم الانجليزي جنباً لجنب لادارة السودان . ووضع كرومر نصوص اتفاقية الحكم الثنائي على اساس السيطرة الانجليزية الكاملة وابعاد الامتيازات الأجنبية والسيادة التركية ولم يبق الا تنفيذ هذه السياسة عمليا على ادارة السودان . ورأى الانجليز أن يرشحوا كتشنر نفسه كأول حاكم عام للسودان مع احتفاظه بوظيفة سردار الجيش المصري . ورأوا ايضاً ان لا ينشأ جيش جديد لحماية السودان بل يظل الجيش المصري نفسه حامياً له مع وجود قوة انجليزية رمزية ولكنها تحتفظ بالذخيرة للجيش . وسلطات الحاكم العام كما هي واردة بنصها في وثيقة الحكم الثنائي مطلقة ولكن بالتعليمات السرية بين كرومر وكتشنر لا يستطيع الحاكم العام أن يبت في أمر له أهميته الا بموافقة الحكومة البريطانية عن طريق مندوبها في مصر .

العلاقة بين كرومر والحاكم العام :

ووضح ذلك في الخطاب الذي وجهه كرومر لكتشنر مع صورة الاتفاقية فأشار عليه بأن يسمح للموظفين الذين يعملون تحت إمرته التحدث معـــه بصراحة دون خوف منه وأن يطلعه (كرومر) على كل مشاريعه قبل بداية العمل بها . فالأدارة المدنية تختلف عن الادارة العسكرية ويتمنى لكتشنر النجاح في الشئون المدنية مثلما نجح في الادارة العسكرية وأن لا يجعل توافـه الأمور تستولي على تفكيره في المسائل الهامـــة . وكرومر من جانبه لا يود تدخلا في التفاصيل ولكن في المسائل الهامة كمياه النيل والامتيازات التي تمنح للأجانب أو غيرهم لا بد من استشارة مندوب بريطانيا في مصر . وفي خطاب آخر للكولونيل جكسن وكان قائماً باعمال الحاكم العـام عند مغادرة كتشنر للسودان وقبل تعيين خلفه أشار كرومر بأن لا يسمح للمآمير المصريين التأثير في رؤسائهم الانجليز في علاقاتهم مع الجمهور . فجهل الانجليز بلغات وعادات الشرقيين ربما يجعلهم يعتمدون على مرؤوسيهم اعتماداً كلياً ويتحملون مسئولية ما يرتكب من أخطاء وتقود في نهايتها لأن يكره الأهالي حكم البريطانيين وينفرون منه . ويرى كرومر ان يتصل الحكام البريطـانيون بالأهالي اتصالاً مباشراً ويتعلمون لغتهم ويدرسون عاداتهم .

تعليمات كتشنر لمعاونيه :

وبعد أن تلقى كتشنر هذه التعليمات للخطوط العريضة على ادارة البـــلاد رأى ان يكون معاونوه سواء في الادارة المركزية أو المديريات من الضبـاط الانجليز الذين يعملون تحت امرته في الجيش المصري . فعين كل رؤساء المصالح في الخرطوم ومديري المديريات في الاقاليم منهم وعزز كل مديرية بمفتشين من هؤلاء الضباط ايضاً . اما ادارة المراكز والمأموريات فقـــد تركت لضباط الجيش المصري من المصريين ولكـــن تحت اشراف المفتشين البريطانيين . وكل هؤلاء يتناولون مرتباتهم من خزينة مصر بصفتهم ضباطـــاً في الجيش

المصري . وأصدر كتشنر منشوراً للمديرين خاطبهم فيه بأن القوانين واللوائح سوف تصدر ولكن حسن الادارة وانتزاع الثقة والاحترام من الجمهور لا تأتي عن طريق اللوائح والقوانين بل بالاتصال الشخصي مع ذوي النفوذ من الاهالي ونادى بأنه لا بد لكل المفتشين الانجليز ان يتعرفوا بذوي المكانة والنفوذ في مراكزهم ويوطدوا علاقات شخصية معهم ويبدون اهتماماً بأشخاصهم واحوالهم وبذلك يتمكنون من التأثير على الجمهور بواسطتهم .

وأكد كتشنر في منشوره هذا ترك الناس احراراً فيما يعتقدون ويعبدون وأمر بتشجيع اشادة المساجد العامة في المدن وان لا يسمح بالمساجد الخاصة والتكايا والزوايا إلا بترخيص من السلطة المركزية حتى لا تكون هذه مكناً للشغب والتعصب الديني وعلى الحاكم ان لا يصغي لحديث المتملقين والكاذبين وعليه الانصات للآراء المخالفة اذا هي أبديت بروح الصدق وليعلم الجميع ان الرق غير معترف بـه من قبل الحكومة . وللمفتش في مركزه ان يراقب أعمال المآمير والبوليس من حيث التحقيق الجنائي وحفظ الأمن العام وتقديم التقارير عن أعمال الموظفين للمدير اذا هم أبدوا عجزاً أو ارتكبوا مظالم او كانت حياتهم الخاصة مجانبة للاخلاق الفاضلة . وأشير للمآمير بأنهم حجر الزاوية في الصرح الاداري الجديد وعليهم بسلكهم ان يبرهنوا بـأنهم نواب حكومة رحيمة عادلة وليذكروا أنهم ورثوا تركة مثقلة بالآلام والمظالم والخوف من رهبة الحاكم وسطوته . ومن أولى واجباتهم ان يجعلوا ادارتهم ظاهرة المزايا راجحة الكفة اذا هي وضعت في ميزان مع الحكومة السابقة . ومع ذلك يجب ان لا يتهاونوا مع من تحدثهم أنفسهم باقلاق الأمن العام او من يرتكبون أعمالاً تعسفية أتينا لازالتها . وأشار كتشنر الى مقاومة الرشوة وتشجيع الأهالي للزراعة ونقل حاصلاتهم للاسواق . وعلى المآمير ان يكونوا مثلاً يحتذى به في أخلاقهم الخاصة وأنذر كتشنر في ختام منشوره

للمأمير بعقوبات الرفت والمحاكمة لمرتكبي جرائم الرشوة وغيرها .

قوانين وتشريعات :

وصدرت قوانين ملكية الأراضي في المدن الكبيرة كالخرطوم وبربر ودنقلة وتنظيم الضرائب وتعاون المستر وليم برونيات الموظف بوزارة الحقانية في مصر مع المستر بونهام كارتر السكرتير القضائي لحكومة السودان في وضع « قـــانون عقوبات السودان » و « التحقيق الجنائي » . وهي مأخوذة من القانون الهندي حسب ما طبق في زنزبار وقانون التحقيق الجنـــائي مأخوذة أيضاً في أصوله من القـــانون الهندي ولكن أدخلت عليه بعض عناصر القانون العسكري في الجيش المصري لأن الذين سيطبقونه كلهم من الجيش المصري .

تمرد ١٤ من اورطة السودانية :

وعندما وجد البريطانيون أنفسهم في موقف حرج في حروبهم ضد البوير في جنوب أفريقيا رأوا الاستعانة بكثير من ضباطهم المنتدبين للجيش المصري وعلى رأسهم كتشنر نفسه . فغادر السودان الى جنوب افريقيا قبل ان يعين خلفه . وفي هذه الأثنـــاء نبتت بذور الاستياء عن الاتفاقية عند فريق من المصريين وظلوا يجاهرون ببطلانها قانونياً ، لأنها إرغام من قوي على ضعيف . ومرت هذه الروح الى صفوف الضباط في الجيش المصري . وزامـــل هذه الروح ان سحبت بعض مدافع المكسيم من الجيش المصري وبعثوا بهـا لتعزيز الجيش الانجليزي في جنوب افريقيا . وطارت اشاعة بأن الأورط السودانية في الجيش المصري سترسل الى ميـــادين القتال هناك أثناء ما كان مكسويل باشا يجمع الذخيرة من أيدي الجنود . وامتنع الجنود عن تسليم ذخيرتهم في هذا الجو من الاشاعات وهجموا عليها لاستردادها . وامتنعت الأورطة الرابعة

عشرة السودانية عن تسليم ذخيرتهـــا . وأخيراً بعد وساطة بعض كبار الضبـــاط رضخوا للأمر وسلموا ذخيرتهم . وتألفت لجنة تحقيق حكمت على بعض الضباط بالرفت وبعضهم بالتوبيخ وأتت الرسائل من الخديوي تستنكر هذا العمل . وعين سير ريجلند ونجت سردارا الجيش المصري وحاكما عامـاً السودان خلفاً لكتشنر . وبدىء في عهد ونجت باستبدال المفتشين الانجليز العسكريين بغيرهم من المدنيين خريجي جامعتي اكسفورد وكمبردج لأن حرب البوير تطلبت رجوع كثير من الضبـــاط الانجليز لوحداتهم في الجيش الانجليزي .

اعانات الخزينة المصرية لادارة السودان :

والاتفاقية لا تتضمن الشئون المالية . وعرف منذ البداية أنـــه سيمضي وقت طويل قبل أن تستطيع ادارة السودان الاعتماد في مصروفاتهـــا على مواردها المالية . وذلك لا بد للخزينة المصرية من سد عجز الميزانية السودانية وعليه كان لا بد من عرض الميزانية لمجلس الوزراء المصري ولا بد للحاكم العام في السودان ومستشاره المالي من التزام مـا ورد في الميزانية بعد التصديق عليها من الحكومة المصرية . والموظف الذي يباشر الشؤون المـالية في هذا الصدد هو المستشار المالي الانجليزي للحكومة المصرية . وفوق هذا فالحكومة المصرية كما قدمنا تتحمل نفقات الدفـاع في السودان لأنها نفقات الجيش المصري وهو قوة الدفاع الوحيدة هناك ما عدا القوة الانجليزية الصغـيرة نسبيـــاً .

خطب كرومر للسودانيين :

وفي عهد كرومر منذ الفتح إلى ان غادر مصر في سنة ١٩٠٧ كانت دار الوكالة البريطانية في القاهرة تشرف على ادارة السودان ويوضـــح كرومر

في كل المناسبات اهداف السياسة البريطانية في السودان سواء في خطبه أو في تقاريره السنوية . ففي ديسمبر سنة ١٩٠٠ خاطب جمعاً حاشداً في الخرطوم بقوله : « الى حضرات علماء السودان وعمده ومشايخه وأعيانه وسكانه كافة انني أشكر لكم من صميم فؤادي خطابكم والترحيب الذي لقيته منكم . عند زيارتي لهذه البلاد منذ سنتين اوضحت لحضراتكم أنكم ستكونون في المستقبل تحت حكومة كل من جلالة ملكة انجلترا وسمو الخديوي المعظم . ولقد صدرت لي الآن أوامر خصوصية من صاحبة الجلالة مليكتي العظيمة التي تحكم في غير هذه البلاد على ملايين من المتدينين بدينكم الشريف لاعرب لكم عن مزيد اهتمام جلالتها بكم وما يؤول الى سعادتكم واني الآن باسم جلالتها سأقلد فرداً من اشرف اهالي السودان المسلمين وساماً انجليزياً نظراً الى ما عرضه عنه سعادة الحاكم العام لجلالتها وهو السيد علي المرغني .

« ولقد تقدمت هذه البلاد كثيراً منذ زيارتي الاخيرة لها وترون أن العهد الذي عاهدتكم عليه وقتئذ من جهة احترام ديانتكم وعوائدكم الدينية قد روعي كل المراعاة .ولقد انشئت لكم المحاكم والمدارس وضربت على أطيانكم ضرائب خفيفة جمعت منكم على ما اظن بلا ظلم ولا اكراه . وتم وصول سكة الحديد الى الخرطوم . ولي أمل ان تكونوا قد أصبحتم مقتنعين بأن حكامهم سواء كانوا انجليز أو مصريين — ولا اميز بينهم لانهم مشتركون في العمل على وفاق تام — ليسوا فقط ذوي مقدرة تفوق جداً مقدرة الحكام السالفين بل ان قلوبهم قد اشربت روح العدالة والرغبة الزائدة في كل ما من شأنه النفع العام لجميع الاهالي وهذا كله لم يكن له أثر حين كان ظلم الدراويش محيقاً بكم » .

وفي يناير سنة ١٩٠٣ قال : « وكثيراً ما يقال لنا نحن معشر الانجليز في هذه الايام أننا متأخرون عن غيرنا من الامم في امر التعليم . وربما كان

لهذه التهمة بعض الصحة ولكن للمسألة وجه آخر عسى ألا يفوت نظر المنتقدين. فأن نتائج نسقنا الخصوصي في التعليم تظهر بأجلى مظاهرها في بـــلاد كالسودان . فالشاب الذي يتربى في احدى مدارسنا العمومية او كلياتنـــا الحربية وينشأ على الاستقلال الذاتي والمسؤولية الشخصية هو الرجل القوي الحازم الذي لا يعول في الدنيا على احد لانه يتلقى في حداثته تحت سماء الحرية مبادىء تضمن له مستقبلاً نيراً كما هو خليق بفرد من افراد أمـة مستعمرة مجيدة . فلا يكون آلة متحركة بل يكتسب من حيث لا يدري عوائد وطباعاً تؤهله لان يتدبر ويعمل الفكرة ويأخذ على عاتقه مسئولية الامور ، وبكلمة ان يحكم بالعدل والحزم . وامثال هؤلاء منتشرون الآن في جميع انحاء هذه البلاد من سواكن الى ما وراء الابيض . ومن وادي حلفا الى اقاصي غوند وكرو . ويمكنني ان اشهـد مما شاهدته بنفسي انه حيثما وجدوا نظر اليهم الاهالي على اختلاف طبقاتهم من همجيتهم الى ارقاهم علماً كممثلي نظام يحول دون الظلم وسوء الادارة اللذين سادا في الماضي » .

سلطات كبيرة لمديري المديريات :

ولو ان هناك مصالح تشرف على النواحي الفنية في الخرطوم كالزراعـة والتعليم والصحة والاشغال وغيرهـــا الا ان مديري المديريات كحكام المقاطعات كانوا ممثلين للحاكم العام ويشرفون اشرافاً مباشراً على الشئون القضائية والتعليمية والصحية وغيرها . ولا يتم انشاء المدارس او المستشفيات او المشاريـع الزراعية الا بموافقتهم . وهناك المثل الصارخ في مديرية دنقلة حيث منع مديرها جكسن باشا التعليم الابتدائي من الدخول في مديريتـه طوال حكمه لهـــا وكان طويلاً . وعلى رأس الجهاز المركزي في الخرطوم سكرتيروه الثلاثة الاداري والقضائي والمـالي . والأول خاصة يشرف على الناحية السياسة ويعمل مديرو المديريات تحت ارشاده . وفي الأقـــاليم اصبح مفتش المركز الانجليزي هو السلطة المحلية التي تمثل الحكومة بكل جوانبها .

فهو القاضي ورئيس البوليس ومدير الأراضي والخبير الزراعي والاقتصادي وخبير مركزه في التعلم والصحة . ولامتلاكه لكل هـذه السلطات وأثره على حياة السكان في جميع النواحي كان له منهم الاحترام المشوب بالرهبة والخوف .

خلاف بين ونجت وكرومر :

وكان ونجت باشا يضيق ذرعاً بالرقابة عليه من دار المعتمد البريطاني في القاهرة ويريد ان يكون حاكماً مطلقاً يتصرف في شئون السودان حسب نص الاتفاقية ولا يعمل بالتعليمات التي أرفقت مع نصوص الاتفاقية حينما بعثها كرومر لكتشنر اول مرة بصفته حاكما عامـاً للسودان . ففي سنة ١٩٠٤ اقترح وضع ضريبة جمركية مقدارها ١٠ ٪ على الماشية المصدرة لمصر . وأثار هذا الاقتراح غضب كرومر وأشار على ونجت ان يفهم هو ومعاونوه ان السودان في مسائله المالية مرتبط بمصر ارتباطاً وثيقاً وان السبب الوحيد لرفع العلم الانجليزي مع العلم المصري وتعيين حاكم عام السودانهو المشاكل الدولية فكما هي عليه الحالة في الموسيقى فالذي يدفع له الحق في اختيار اللحن . وفي خطاب خاص بعث به كرومر لوزير خارجية بريطانيا عندما هم بمغادرة مصر في سنة ١٩٠٧ اشار بأنه لاحظ على ونجت نزعة استقلالية لحكم السودان ولم يتفهم المبادىء الرئيسية التي توجه سياسته . ويجهل المسائل المالية كالأطفال كل هذا بالرغم من أن أعماله جيدة وعلاقته حسنة مع ضباطه . وكان هو (كرومر) يراقب وينصح ويرشد ويرفض اذا استدعى الحال ولكنه يخاف من ان يرجع ونجت الى نزعته الاستقلالية فتفكيره محلي من هذه الناحية ويرى ان تعنى وزارة الخارجية بمسائل السودان أكثر ممـا كانت تفعل وهو بدوره سيلفت نظر خليفته سير الدون فورست . وعندما أنشىء مجلس الحاكم العام في سنة ١٩١٠ أشارت المذكرة التي أرفقت مع اللائحة من السير الدون فورست الى الرقابة التي كانت للمعتمد البريطاني في مصر على ادارة السودان

ووضحت كل النقاط التي يجب الاستشارة المبدئية فيهـــا والتي ترسل للعلم بها فقط .

مجلس الحاكم العام :

ورأى سير الدون فورست عندما خلف كرومر ان يقيد سلطات ونجت نوعاً ما بانشاء مجلس للحاكم العام يشترك معه في ادارة البلاد مع الاحتفاظ له بسلطاته بموجب الاتفاقية ومع الرقابة الفعالة من جانب معتمد بريطانيـا في القاهرة . فصدرت لائحة المجلس في سنة ١٩١٠ . والمجلس مكون من السكرتيرين الثلاثة الاداري والمالي والقضائي والمفتش العـام بحكم مناصبهم ويضاف اليهم آخرون من رؤساء الادارات المركزية يتراوح عددهم مـا بين اثنين وأربعة وقد أصبحوا خمسة فيما بعد . وعلى المجلس الجديد ان يوافق على القوانين والميزانية كعمل اساسي ويعرض عليه الحاكم العام الشئون الأخرى بصفة استشارية . ومع ذلك فللحاكم العام الحق في ان يخالف ما توصل اليه المجلس من قرارات .

شبكة المواصلات الحديدية :

وأصبح الخط الحديدي من حلفا جنوباً رابطة وثيقة بين السودان ومصر حين وصل للخرطوم بحري . وحلت تلك المشكلة التي كانت تواجـــه العهد التركي – المصري وهي الوصول الى السودان الأوسط . وخدم فوق الأغراض العسكرية التجارة السودانية . ولكن مـــا زال السودان منقطعاً عن العالم الخارجي لأن ميناءه الوحيدة وهي سواكن مـا زالت تتصل بطريق القوافل التقليدي الى بربر . وكان انشاء خط حديدي يربط النيل بالبحر الأحمر اول ما فكرت فيه الادارة الجديدة ولكن كيف يمول مثل هـــذا المشروع ،

وخزينة حكومة السودان خاوية الوفـاض . وقد دارت في الرؤوس فكرة بيع الخطوط القائمة لشركة انجليزية على ان يعهد اليها مد الخطوط الاخرى أو ترك ما تم مده للحكومة وقيام الشركة بما يجد منها . ولكـــن كرومر لم يكن متحمساً للشركات الاحتكارية ولم يكن بد من أن تقوم احـــدى دولتي الحـكم الثنائي باقراض حكومة السودان المـــال اللازم لمد شبـكات السكة الحديد الضرورية . وانجلترا لا تريد القيام بهذا الأمر وفتحت مصر خزينتها للسودان . وتم اتصـــال البحر الأحمر من ميناء بورت سودان الجديدة بمطبرة على النيل في سنة ١٩٠٦ وبذلـــك فتحت نافذة على العـالم الخارجي .

ابحاث مائية ومشروعات للري :

وبما أن استرجاع السودان تم في الدرجة الأولى لضمان السيطرة على وادي النيل لئلا تحتله دولة اوربية اخرى وتكون خطراً على زراعـة مصر فقد أتى المهندسون الانجليز الذين يعملون في الري المصري ودرسوا النيـــل وروافده وقدروا مناسيبه واقترحوا مشروعات الري اللازمة للتوسع الزراعي لمصر والسودان في المستقبل . واول مشروع بدأ التفكير فيه في السودان هو مشروع الري لأرض الجزيرة . فأرضها منبسطة ويسهل ريها باقامة سد في أي مكان بين سنار والروصيرص . وكانت النية في اول الامر متجهة لزراعته قمحاً لسد حاجات البلاد ولتصديره لبقية اقطار الشرق الأدنى . وفي الوقت ذاته اهتمت مصانع لانكشير في انجلترا بمسألة القطن وجرت تجارب في شمال السودان ثم في أرض الجزيرة نفسها وأخـــيراً حصلت حكومة السودان على قرض بضمان الحكومة الانجليزية من المولين البريطانيين وبدىء فعلاً بالعمـل في خزان سنار في أوائل سنة ١٩١٤ إلا ان قيام الحرب اوقف العمل فيـــه بحـكم الضرورة .

التعليم :

وفي ميدان التعليم بدأ كتشنر في شتاء ١٨٩٨ — ١٩٩٩ حملة تبرعات في بريطانيا ليؤسس بها داراً للتعليم تخليداً لذكرى غوردون واستجاب الشعب الانجليزي لهذا النداء وجمعت تبرعات تزيد عن مائة الف جنيه في وقت قصير . ووضعت التصميمات لبناء الدار التي سميت بكلية غوردون وكانت السياسة آنذاك ترمي الى الناحية العملية من التعليم وأن تكون اللغة العربية صاحبة المكان الأول والمرحلة الابتدائية تكون على غرار مدرستي أسوان وحلفا في المنهج . وبتشييد كلية غوردون كمؤسسة تتطور مع الزمن وترتفع الى المراحل العليا في التعليم تدريجيا انشئت مدارس أولية في المدن الكبيرة كنماذج لما سوف يكون عليه التعليم الأولي . ولا ننسى أن كرومر كان يشجع التعليم الأولي في مصر ولكنه يضع العراقيل أمام التعليم العالي وامتدت سياسته هذه وشملت السودان . ووضع مستر جيمس كري أول مدير للتعليم في السودان سياسة الحكومة في هذا الصدد . رأى أن تقتصر اغراض التعليم في اول الامر الى ما يعود على البلاد بانعاش اقتصادي وما يعود الى تيسير الأداة الحكومية . فأهدافه تحت هذا الضوء يجب أن تكون خلق طبقة من الصناع المهرة ونشر التعليم الأولي بالقدر الذي يستطيع الأهالي بواسطته فهم الأداة الحكومية التي تدير شئونهم وتدريب طبقة من أبناء البلاد تستخدم في الوظائف الحكومية الصغيرة . وأنشئت لهذه الأغراض مدارس صناعية في ترسانة الوابورات النيلية في حلفا للسكة الحديد وشيدت مدارس أولية نموذجية في الخرطوم وبربر وأم درمان ودنقلة وود مدني وحلفا وسواكن . وأمدت مصر هذه المدارس بالمدرسين .

ولخلق طبقة من صغار الموظفين لا بد من إنشاء مدارس ابتدائية جديدة زيادة على مدرستي حلفا وسواكن قبل الفتح وأم درمان بعده .

ولا بد من إنشاء معاهد لتدريب المعلمين للمدارس الاولية أولاً ثم لتدريب مدرسي المدارس الوسطى . وكانت كلية غوردون هي المؤسسة التي تمد البلاد بالمدرسين وكلية غوردون عندما اكتملت أقسامها كانت تضم مدرسة صناعية ومعهداً لتدريب المعلمين ومدرسة ابتدائية ثم ثانوية مهنية بعد ذلك وشكل لها مجلس أمناء في انجلترا واصبحت الملكة فيكتوريا راعية لهذه المؤسسة الجديدة التي تحمل اسم غوردون . وفي يناير سنة ١٨٩٩ اجتمع مجلس كبير في بنك انجلترا لتكوين لجنة تنفيذية تشرف على تنفيذ المشروع . تحدث لورد سلسبري رئيس الوزارة البريطانية ووصف مشروع كلية غوردون على أنه « مشروع فرضته علينا التزاماتنا الامبراطورية . فهو محاولة لازالة ما بين الشعوب من حواجز وإقامة رابطة من المعاونة الفكرية ونشر الثقافة الانشائية » .

وعندما بدأ التفكير في مشروع ري لأرض الجزيرة رأى المستر كري ان يفتح قسماً ثانوياً مهنياً لتخريج المساحين الذين يستطيعون القيام بالأعمال التنفيذية في مسح الأراضي وفي الري . ثم أضيف الى الكلية قسم لتخريج مدرسين للمدارس الابتدائية خاصة اللغة الانجليزية . وبالاتفاق مع السكرتير القضائي أنشىء قسم لتخريج عمال قضائيين يترقون بعدها الى قضاة في المحاكم الشرعية مع المدرسين للمدارس الابتدائية في اللغة العربية والدين والعلوم الأخرى ما عدا اللغة الانجليزية .

ثورات على الحكم الثنائي :

ولو ان الحكومة الجديدة في السودان قضت على حكومة المهدية بموت الخليفة عبدالله الا انها كانت تخشى من قيام ثورات تناصر المهدية او يقوم بها اتباع الطرق الصوفية . ولذلك حذرت من تجمهر الدراويش وحذرت المشايخ. ومع ذلك قامت بعض الثورات التي ترتكز على أساس ديني . ففي سنة

١٩٠٣ قام الشريف محمد الأمين من مهاجري الغرب . وقد مر بالسودان في طريقة للحج . وبعد ان رجع منه أتى بوثيقة من مكة تثبت انتسابه لآل البيت وبوثيقة أخرى موجهة الى قبائل السودان لمناصرته وشد أزره وحط رحاله في جبال تقلي وتبعه بعض الأهلين هنـــاك . وعلمت الحكومة بأمره فأمرت مـــاهون باشا مدير كردفان بقيادة حملة للقضاء على حركته هذه فوجده في مكمنه وهزمه وأسر قـــائد الحركة ونفذ فيه حكم الاعدام في الأبيض .

وفي سنة ١٩٠٤ قام شخص آخر في ضواحي سنجه وأدعى انــه نبي الله عيسى وقطع خط التلغراف ووجد من ناصره وأيده ولكن ثورته أخمدت في حينها . وفي سنة ١٩٠٦ قامت ثوورة في تلودي لا ترتكز على الدين ولكن مقاومة لسلطة الحكومة، قتل فيها عدد من البوليس والجنود والتجـار وعلى رأسهم مأمور المركز أبو رفاس . وفي سنة ١٩٠٧ ظهردعي آخر في القضارف على أنه نبي الله عيسى ولكنه قبض عليه في حينه قبل ان يستفحـل امره . وهذا يدل أن روح الثورة المرتكزة على الدين او الاستهانة بسلطة الحكومة لم تخمد بين السودانيين ولكن اخطر هـــذه الثورات والتي قامت كامتداد لروح المهديـــة هي ثورة عبد القادر ود حبوبة في اقليم الحلاويين بالقرب من الحصاحيصا .

في سنة ١٩٠٨ قامت ثورة عبد القادر ود حبوبة وهو ابن زعيم كبير من قبيلة الحلاويين وانخرط في سلك الأنصار وصاحب حملة عبد الرحمن النجومي حين غزوهـــا لمصر وتمكن من الرجوع للسودان بعد تمضية بعض الوقت في الأسر هناك . وهو من أولئك الأنصار الذين لم يعترفوا بالفتح ومـا أراد ان يغير نهج حياته المرتكزة على بيعته للأمـــام المهدي . وفي هذا خالف بقية اخوانه وبني عمه لأنهم رضوا بالأمر الواقع وأرادوا انينتبهوا لمزارعهم والعيش في أمان تحت ظل الحكومة الجديدة . وأثناءتسوية أراضي الجزيرة استعداداً

لمشروعها رأى عبد القادر أنه غبن من ضابط التسوية الانجليزي وهذا ما زاد من نقمته على الحكومة التي خلفت حكومة اسلامية تطبق الشريعة والقانون السماوي واتباعاً لسنة المهدية في الزهد والتقشف فقد باع بعض أطيانه وبأثمانها فتح الخلوات للضيوف ، وتجمع عليه من يرون رأيه في بث روح المهدية ومقاومة الحكومة الدخيلة . وعندما بلغت مراكز الحكومة مسلكه هذا وهي قد حرمت مثل هذه الاجتماعات طلبته للحضور الى المركز لكنه لم يستجب . وذهب مفتش انجليزي ومأمور مصري لمقابلته وكان نصيبها القتل ومجاهرة الحكومة بالعصيان وقامت بلوكات من الجيش من واد مدني والخرطوم وتم القضاء على حركته بعد ان فقد الجيش عدداً من جنوده وضباطه في مباغتة ليلية قام بها عبد القادر وأنصاره . وأخيراً تم القبض عليه واعدامه في قريته .

السودان اثناء حرب ١٩١٤ :

وعند قيام الحرب العالمية الاولى احتاط الانجليز لأية دعاية تبثها تركيا في السودان مناهضة للحلفاء وخاصة ان تركيا نفسها على وشك الدخول محاربة في صفوف الألمان ، خاف الانجليز من سريان روح الرابطة الدينية مع تركيا . ولذلك طاف الحاكم العام السير ريجنلد ونجت بنفسه على الأقاليم في اكتوبر سنة ١٩١٤ واتصل بزعماء القبائل وكبار الموظفين شارحاً لهم الحالة الدولية وأهمية انجلترا في تلك الحرب ونبل مقاصدها . وفي الخرطوم قامت جريدة السودان بالدعاية المطلوبة وبذلك تهيأ الجو لتلقي نبأ دخول تركيا الحرب . وعندما تأكد دخول تركيا الحرب في الجانب الالماني دعا الحاكم العام الى سرايه عدداً من ضباط الجيش المصري وشرح لهم الموقف الدولي وأهاب بهم لأداء واجبهم وأظهر استعداده للاعفاء من الاشتراك في الأعمال الحربية ضد تركيا أولئك الضباط الذين ينحدرون من أصل تركي ولا تسمح لهم ضمائرهم

بحمل السلاح ضد بني جنسهم .

وقابل الحاكم العام بعد ذلك عدداً من العلماء وشرح لهم الحالة وأعقبه في ٨ نوفمبر سنة ١٩١٤ بدعوة للمشايخ والعلماء في المدن الثلاث وأبان لهم الثمار التي جنتها البلاد من الحكم الحالي . ووضّح لهم مناصرة دولة بريطانيا العظمى للإسلام والمسلمين . وتحمس الحاضرون ووقعوا على وثيقة ولاء وإخلاص ونحا نحوهم أعيان العاصمة المثلثة الذين لم يحضروا هذا الاجتماع . وكذلك فعل زعماء العشائر وأعيان الأقاليم ورجال الدين الموظفين بالعرائض والتلغرافات . وجمعت هذه الوثائق في كتاب سمي سفر الولاء ولو ان بعض الذين كتبوا هذه العرائض وأرسلوا التلغرافات شطحوا وبالغوا في عدل بريطانيا وحبهم لها إلا ان أهل السودان عامة ليس لهم حماس يربطهم بتركيا والاتراك لانهم عرفوا وخبروا الحكم التركي قبل المهدية .

ومع ذلك فقد قامت ثورة في جبال النوبة لا علاقة لها بالدعاية التركية وثار السلطان علي دينار حاكم دارفور ضد الحكومة بعد اتصالات حدثت بينه وبين مبعوثي تركيا في ليبيا . ففي جبال النما ثار عجبنا وطلب من سكان الجبال موافاته بالضريبة المستحقة عليهم بدلاً من توريدها في خزينة الحكومة واستفحل أمر ثورته لأنه تحصن بالجبال وتطلب الامر ارسال دورية مكونة من ٣١ من الضباط الانجليز و ١٠٥ من الضباط المصريين والسودانيين و ٢٨٧٥ من الجنود ومعهم ٨ مدافع كبيرة و١٨ مكنة . وحاصرته في معتصماته من الجبال أشهراً عديدة . وتم للحكومة الاستيلاء على الجبال الثائرة والقبض على زعيم الثورة في ديسمبر سنة ١٩١٧ وبذلك صرف هذه القوة الكبيرة عن العمل في ميادين أخرى اثناء فترة الحرب .

ثورة السلطان علي دينار :

وتاريخ علي دينار واستيلائه على دارفور بعد القضاء على المهدية مباشرة

في موقعة كرري يستحق الوقوف عنده قليلاً . فقد رأى كتشنر بعد موقعة عطبرة وقبل ان يتقدم نحو أم درمان ان يستخدم احد المدعين النسبة للعائلة المالكة في دارفور في الدعاية للحكومة الجديدة هناك والاستيلاء على الحكم من حكومة المهدية الى ان يفرغ الجيش من مهمته الاصلية ويتفرغ لما يراه صالحاً لحكم دارفور . ولكن الشخصية التي كتب لها ان تلعب هذا الدور كانت الامير علي دينار . فقد كان في شبه اعتقال في أم درمان لان ثورات هؤلاء الامراء المتكررة على حكومة الخليفة عبدالله جعلته يستدعيه لام درمان ليلازم الصلوات الخمس في المسجد الجامع وليقف على باب الخليفة . وكانت هذه طريقته لمن يريد أن يعتقله في العاصمة دون ان يدخله السجن . وعندما قامت المعركة الفاصلة بين جيش الخليفة وكتشنر انتهز على دينار هذه الفرصة وفر ومعه نفر قليل من صحبه المختارين غرباً عن طريق كوردفان . وتجمع عليه بعض أهالي دارفور وهو في طريقه إلى دارفور ودخلها في عدد يصل الى الألفين وتمكن من استلام الحكم بازالة منافسه إبراهيم علي الذي بعثه كتشنر . وخضع كتشنر للأمر الواقع بعد ان تبين له أن علي دينار أقوى الاثنين ولان إبراهيم تنازل لمنافسه .

وكانت خطة حكومة السودان هي أن تخلق من دارفور سلطنة يتربع علي دينار على عرشها وتترك له حكم البلاد الداخلي ولكنها تمده بالمستشارين ويقيم معه في عاصمته معتمد من قبلها .ولكن علي دينار صمم منذ البداية ان يتحرر من سلطة الحكومة وقبل ان يرفع العلمين ويدفع جزية رمزية سنوية . كل ذلك ليضمن لنفسه ان يذهب رعاياه إلى الحج عبر بلاد السودان حيث درج على إرسال محمل سنوي للحجاز ومعه مبلغ من المال يفرق على فقراء البلاد المقدسة . وتملص علي دينار من كل المحاولات التي ترمي الى رباط اوثق بحكومة السودان ولم تر الحكومة من جانبها ان تدخل في مغامرة حربية ضده وخاصة أن الخط الحديدي لم يصل الى الابيض . والمنطقة بين كردفان

ودارفور عديمة المياه ويصعب عبور قوة كبيرة خلالها .

وللسلطان علي دينار مشاكله الداخلية والخارجية في دارفور فقبائل البقارة التي تسكن في جنوب دارفور صعبة القياد وتمتعت في كثير من الفترات باستقلال عن سلاطين دارفور في الفاشر . وحدثت مشاكل قبلية بين القبائل التي تسكن دارفور والتي تحت نفوذ الحكومة في كردفان . وكان علي دينار كثير الشكوى من الحكومة لانها لا تجبر القبائل التي تفر من دارفور على الرجوع اليها . ومنطق الحكومة هو أنهم يترحلون في بلاد واحدة من منطقة الى اخرى ، ومما زاد للطين بلة ان حلقة الاتصال بين السلطان والحكومة هو سلاطين باشا الذي كان آخر مدير لدارفور ثم سلم لقوات المهدية وادعى الاسلام وظل ملازماً لباب الخليفة عبدالله مدة عشر سنوات الى ان تمكن اخيراً من الفرار لمصر . وحضر مع قوات كتشنر وعين مفتشاً عاماً خاصة للشئون الاهلية والعلاقات مع الزعماء والاعيان لانه يدعي معرفة البلاد اكثر من غيره من الحكام الانجليز . وكان سلاطين لا يراعي مركز علي دينار بل لا زال يرى فيه احد رعاياه عندما كان حاكما لدارفور وزميلاً له في باب الخليفة عبدالله ، وفي الخطابات التي كانت دائرة بينهما بصدد المسائل المختلف عليها يمتن سلاطين على علي دينار من وقت لآخر . وهذا مما زاد في حنق علي دينار على الحكومة ولا سيما أنه كان متديناً ويرى في سلاطين مرتداً عن الدين الاسلامي بعد ان تظاهر بأنه اعتنقه وأشربت روحه بحبه .

واليكم نماذج من بعض الوسائل التي كان يرسلها سلاطين لعلي دينار : « إن جل ما اوحى اليه من الغايات هو ان اخلص لكم النصيحة في كل اموركم وعلاقاتكم وواجباتكم نحو الحكومة التي انقذتكم من ايدي الخليفة واعوانه واعادتكم الى بلاد آبائكم واجدادكم حتى تحكموها وتقيموا العدل والامن في ارجائها » . وفي خطاب آخر « انني قد كتبت لكم مراراً

عديدة وصرحت لكم انني كنت اول العاملين لاعادة الراحة الى هذه البلاد وإعطاء الحرية والامان لاهلها وإطلاق اعناقهم من قيود الظلم والاستبداد . وكيف انني كنت الواسطة لاجل تمتعكم بنعمة العودة الى بلاد آبائكم واجدادكم لتحكموها بالعدل والحكمة وترد اليها ما فقدته من سابق مجدها وعزها بسبب الظلم والاستبداد . وقد ذكرت لكم مراراً ان الحكومة لا تزال على عهدها القديم معكم تحفظ لكم أصدق العواطف وتميل إلى مساعدتكم ومعاونتكم بكل وسيلة ممكنة . وكان الاولى بكم ان تثقوا بما قلته لكم مراراً واقوله الآن لان غايتي كما يعلم الله هي راحتكم بدوام مجدكم» .

وفي السنتين الاخيرتين قبل قيام الحرب العالمية توترت العلاقات بين علي دينار والحكومة الى درجة كبيرة وخاصة بعد وصول خط السكة الحديد للأبيض في سنة ١٩١٢ . فهي قد تشددت في أمور كانت تتساهل فيها من قبل ورأت بوصول الخط ان مشكلة الترحيل انحلت جزئياً وتستطيع ان تقوم بعمليات حربية ضده اذا دعت الضرورة . وسط هذا الجو من سوء التفاهم قامت الحرب وعرفت المخابرات التركية توتر العلاقات بينه وبين الحكومة وكان علي دينار في الوقت نفسه على استعداد للاتصال بتركيا حيث خليفة المسلمين وهو كان مسلماً متديناً . ومثلما بعث انور باشا بالرسائل لامراء المسلمين بعث لعلي دينار يصور له ان تعدي الحلفاء على تركيا هو حرب صليبية وعلى المسلمين ان يلتفوا حول خليفتهم للجهاد في سبيل الله . ورد السلطان علي دينار بقوله : « ونخبر جنابكم أننا منذ انتشاب الحرب بين جلالة سلطان الاسلام وبين الألداء الكفار والفساق الانجليز وفرنسا ومـا يليهم فمن وقته قطعت ما كان بيني وبين الكفار الملعونين من العلائق الودية وجاهرتهم بالمداوة وأعلنتهم بالحرب واستعديت لهم بقدر ما يستطيعني من القوة غيرة في دين الله وحمية للاسلام » .

وتيقنت حكومة السودان بما لا يدع مجالاً للشك من عداء السلطان لهـــا ولذلك قررت الزحف عليه قبل ان يتمكن هو من غزو كردفان . وبالرغم من حاجة انجلترا آنذاك للجيش في ميادين أخرى جمعت قوة تقل عن ٣٠٠٠ جندي قليلا أغلبيتهم من الجيش المصري وتغلبت بمشقة على صعوبات الميـــاه والترحيل الى ان أشرفت على الفاشر وأول مقاومة جادة كانت بالقرب من قرية برنجية على بعد نحو ١٢ ميلا شمالي الفاشر وبعد حركة استكشاف من الجيش المصري هب فرسان الغور مهاجمين مربع الجيش . وثبت الجيش لهذا الهجوم وبالطلقات السريعة المنتظمة استطاع رده وترك جيش السلطـان نحو ٥٠٠ قتيل في ميدان المعركة وتراجع الى الفـاشر . ورأى السلطان ان يغادر الفـــاشر ويلتجىء بجبل مرة الحصين وكانت الخطة ان يترك وشأنه وتجهز حملة أخرى للقضاء على قوته ونزل قائد الحملة كلي باشا بالاجازة غير ان هدلستون بك قائد الهجانة وكان يرابط في نقطة أمـــامية رأى ان يهاجم السلطان قبل ان يتقوى مخالفاً للأوامر التي بيده وزحف على معسكر السلطان وأصابته رصاصة طـائشة في ٦ نوفمبر سنة ١٩١٦ وأردتـــه قتيلا . وبذلك تم انضمام دارفور لبقية السودان بعد مرور ثمانية عشر عامـــاً من موقعة كرري .

الفصل الثامن

ثورة سنة ١٩٢٤ وما بعدها لسنة ١٩٣٩

وضعت الحرب أوزارها وتكون وفد من كبار الزعماء الدينيين ومشايخ العشائر في سنة ١٩١٩ وسافر لانجلترا لتهنئة ملك بريطانيا لانتصاره على المانيا . وشاهدت هذه السنة في المحيط العالمي عقد جلسات الصلح في باريس من وفود الدول المنتصرة لتخطيط المستقبل وضمان السلم العالمي . وفي مصر هبت الطبقات الواعية وتكتلت للمطالبة بالحرية وخاصة بعد أن نشر ولسون رئيس الولايات المتحدة الامريكية مبادئه التي أهمها حق تقرير المصير للشعوب. تكون وفد مصري على رأسه سعد زغلول باشا لمقابلة سير ريجنلد ونجت المندوب السامي البريطاني مطالباً بأماني مصر القومية . وفوجيء ونجت بهذه المطالب ولم يكن على استعداد لمناقشتهم لأن دولته مهتمة بمؤتمر الصلح الذي سيعقد في باريس وكانت تلك المقابلة عقب اعلان الهدنة . ومنعت السلطات العسكرية الوفد من السفر لانجلترا لعرض قضيته بل قبضت عليهم وعلى غيرهم من الزعماء وأودعتهم السجون ورحلتهم أخيراً إلى منفاهم في مالطة. وأعقب ذلك ثورة شعبية جامحة احتجاجاً على هذا التعسف الانجليزي .

ونفس المصريون في ثورتهم هذه عما أصابهم في سني الحرب من كبت وتسخير العمال والمزارع والبهائم لحملات الانجليز الحربية . والآن بعد أن انتهت الحرب ونودي بحق تقرير المصير للشعوب يمنعهم الانجليز عن المطالبة بهذا الحق وينفى زعماؤهم عن أرضهم .

وفي نفس هذا الوقت بدأ وعي وطني عماده بعض الخريجين من كلية غوردون وبعض شبان الأعمال الحرة الواعين متأثرين بمبادىء ولسن وبالثورة المصرية وأسسوا جمعية سرية لمقاومة الانجليز عن طريق المنشورات. وكانوا يتتبعون أخبار الثورة المصرية وعلموا بتعيين مستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية للورد اللنبي فاتح القدس مندوباً سامياً لمصر ليعالج الموقف بحزمه لأن الحكومة الانجليزية تعالج مشاكل الصلح التي تراها في الدرجة الأولى من الاهمية واطلق سراح المعتقلين الذين سافروا لفرنسا لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح ولكنهم لم يجدوا آذاناً صاغية وسدت الأبواب أمامهم. وكعادة الانجليز في مثل هذه الأحوال كونت لجنة برئاسة لورد ملنر للتحقيق عن أسباب الاضطراب في مصر وتقديم تقرير لتعمل الحكومة على ضوئه . وأرسل الوفد وهو في أوروبا لمصر بمقاطعة اللجنة . ومع ذلك تمكنت من مقابلة بعض المصريين . وقبل ان تقدم تقريرها اقنع عدلي باشا سعداً ورفاقه بالدخول في مفاوضات مع لورد ملنر . ويهمنا في أمر هذه المفاوضات ونحن بصدد تطور الحوادث في السودان وما يتعلق به . فوجهة النظر المصرية كانت تربط السودان بقضيتها وان تسامحت فترجىء النظر فيها لمفاوضات مقبلة . والانجليز يرون ان مسألة السودان منفصلة تمام الانفصال عن القضية المصرية وسيتطور السودان في طريقه الخاص بموجب اتفاقية الحكم الثنائي وتحت اشراف الانجليز .

وفي نظر الانجليز لا يهم مصر من السودان سوى مياه النيل وانجلترا تضمنها لهم وبعد استشارة زملائهم في مصر رفض الوفد كل المقترحات .

السودان في المفاوضات المصرية الانجليزية :

وحاول عدلي باشا رئيس الوزارة المصرية آنذاك ان يدخل في مفاوضات رسمية مع لورد كيرزون . ولكن كانت وجهات النظر مختلفة ايضاً . فالانجليز لا يرون ان تمس المسألة السودانية لا في الحاضر ولا في المستقبل وعدلي يتمسك بارجائها لمفاوضات مقبلة على الأقل . وفي تقرير ملنر الذي نشر كانت اشارته واضحة على أن السودان سيسير في طريقه تحت رعاية بريطانيا وبدأت حكومة السودان تنشر لوائح تعطي سلطات لمشايخ القبائل الرحل وبتدريب سودانيين للادارة يخلفون المآمير المصريين وهذه خطتهم لاشراك السودانيين في الحكم . ويقرأ الشباب المتعلم من السودانيين هذه التطورات في المفاوضات وتلك التضحيات التي يقوم بها المصريون لمقاومة الانجليز والخطب التي يلقيها الزعماء مطالبة بالحرية ومندددة بالانجليز . وفي بلادهم يرون غطرسة المفتشين الانجليز ووقوف الناس اجلالاً واحتراماً لهم .

نزوع للحرية :

ورأى الانجليز في السودان ان هذا التيار الجديد في صالح مصر ولا بد من مقاومته بدعاية مضادة . فيتصل بعضهم بخريجي كلية غوردون وخاصة ناظرها ويطلعونهم على ما ينشر في الصحف البريطانية من نوايا طيبة نحو السودان وظهرت عبارة (السودان للسودانيين) ويذكرونهم ما كانت عليه الحالة في العهد التركي – المصري . وينشط أولئك الذين يرون في مصر مثلا للكفاح لنيل حريتهم ويربطون قضيتهم بقضية مصر ويواصلون مقاومتهم السرية للأنجليز ونجحت هذه الجمعية السرية (جمعية الاتحاد السوداني) في ايفاد الرعيل الأول من طلبة كلية غوردون الى مصر لمواصلة دراستهم هناك وهما المرحوم

بشير عبد الرحمن والاستاذ توفيق احمد البكري وتلاهما الاستاذ الدرديري أحمد اسماعيل وشعارها كما ورد عن لسان احد مؤسسيها وهو الاستاذ سليمان كشه هو (السودان للسودانيين والمصريين أولى بالمعروف) وهـــذه الجمعية لم يتعد نشاطها توزيع المنشورات المنادية بمناهضة الحكم البريطاني . وهناك كثيرون يرون رأيهم ولكنهم لم ينتظموا في الجمعية بل يتأثرون بمـا يقرأونه ويسمعونه عن أخبار نضال مصر ضد الانجليز .

علي عبد اللطيف وجمعية اللواء الابيض :

أما الجمعية التي تكونت وربطت كفاحها مع مصر واظهرت نشاطهـا في تلغرافات مؤيدة الوفد في نضاله وخرجت في مظاهرات بعد ذلك فهي جمعية (اللواء الابيض) . وشعارهـــا علم رسم عليه النيل من منبعه لمصبه وكتب تحته (الى الأمام) ويجدر بنا ان نقف قليلا لنروي قصة رئيس هذه الجمعية وبطلها وهو المغفور له الملازم علي عبد اللطيف . ولد في حلفـا سنة ١٨٩٢ حيث كان والده يعمل جندياً في الجيش المصري .وأتم تعليمه الابتدائي والتحق بالمدرسة الحربية في الخرطوم تخرج بعدها ضابطاً في رتبة ملازم ثان في سنة ١٩١٤ . وتنقل في الوحدات وفي الادارة كنائب مأمور الى ان كانت سنة ١٩٢١ حيث حل بالكتيبة السودانية المرابطة في ود مدني عـاصمة الجزيرة . وهناك أصبح منزله منتدى للتحدث في السياسة ومناقشة المسائل العـــامة . واصطدم بنائب المدير الانجليزي حيث لم يؤد له التحية مع بعض زملائـه . وعندما لفت نائب المدير نظره ناقشه مناقشة حادة أدت بعد الاتصال برؤسائه الانجليز الى احالته للأستيداع . وسافر للخرطوم حيث تفرغ للشئون العامة وكتب مقـــالاً للجريدة الوحيدة (حضارة السودان) ولم ير رئيس التحرير نشره لأنه يخشى اعتراض المخابرات عليه والجريدة تحت اشرافها . ومع ذلك تمكن مدير المخـابرات من سحبه من درج رئيس التحرير بنفسه حيث دلته

عيونه وقدم علي عبد اللطيف بمقتضاه للمحاكمة لأنه نشر في الصحف المصرية . حكم عليه بالسجن سنة . ومــا كان المقال يحوي الا مطالبة بتوسيع فرص التعليم ونزع احتكار السكر من يد الحكومة ونقد لمشروع الجزيرة . وفي هذا دليل واضح على ان الانجليز ما كانوا يسمحون لاقل نقد لسياستهم حتى ولو كان لمثل هذه الأشياء الصغيرة التي ذكرناهــا ولكنها كانت تتربص بعلي عبد اللطيف الى ان أودعته السجن .

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وتجدد المفاوضات :

ولنرجع لمتابعة التطورات في مصر تأكد للانجليز انه لا يمكن الوصول الى حل للقضية المصرية عن طريق المفاوضات لان وجهــات النظر مختلفة ولا يرضى مصري او مجموعة منهم الموافقة على مشروع يصممهم في المستقبل على انهم قيدوا بلادهم بأنفسهم . ورأوا ان يصدروا تصريحاً من جانب واحد يعطي لمصر مظاهر الاستقلال ويحتفظون لأنفسهم بالمسائل الهامة . وصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ على هذا الضوء وفي مقدمته الاستقلال لمصر مع تحفظــات أربعة من ضمنها مسألة السودان حيث يبقى على ما هو عليه تحت ظل الحكم الثنــائي . وتكونت في مصر لجنة للدستور تصدت الى اللقب الذي تعطيه للملك . فاقترحوا ان يكون « ملك مصر والسودان » واعترض الانجليز على ذلك وأصروا على تعديله وهددوا ورضيت لجنة الدستور أن ترجيء اللقب إلى ان تحل مشكلة السودان . وفي سنة ١٩٢٤ كوّن سعد زغلول أول وزارة دستورية حيث فاز حزب الوفد بأغلبية كاسحة . وفي نفس السنة كوّن علي عبد اللطيف جمعية اللواء الأبيض وسارعت بارســال التلغرافات مؤيدة المطالب المصرية بالاستقلال الكامل لمصر والسودان .

ولأول مرة في تاريخ بريطانيا حاز حزب العمال في الانتخابات أغلبيــة مكنته بمساندة الأحرار من تكوين حكومة برئاســة رمزي ماكدونلد .

وبعث رئيس الوزارة البريطانية الجديدة ببرقية تهنئة للبرلمان المصري وأبدى استعداده للدخول في مفاوضات في التحفظات الأربعة . وتضمن خطاب العرش عند افتتاح البرلمان المصري في مارس سنة ١٩٢٤ عزم الحكومة على تحقيق الأماني القومية في الاستقلال لمصر والسودان . وارتبط السودان مع مصر من أعلى منبر البرلمان المصري . وتجاوبت أصداء هذا التصريح من سعد زغلول في السودان ونشطت الجهات التي ربطت قضيتها مع مصر . وتلى ذلك في المناقشات البرلمانية ذكر السودان في مناسبات مختلفة . فانتقد وضع الجيش المصري تحت قيادة إنجليزي هو في نفس الوقت الحاكم العام السودان . وانتقدوا سياسة الضغط والإرهاب التي تقوم بها السلطات الانجليزية في السودان ضد السودانيين الذين يودون السفر لمصر لاظهار ولائهم للتاج المصري . ولكل هذه المناقشات رد فعل في البرلمان الانجليزي وأكد ناطق بلسان الحكومة البريطانية في مجلس اللوردات أن مسألة السودان تخص البريطانيين وحدهم وأنه لا تغيير في إدارة السودان الحالية . ويرد سعد على التصريحات الانجليزية وتستمر حركة العنف لمناهضة الانجليز واغتيالاتهم في مصر .

اللواء الابيض يخرج للشارع وطلبة الحربية في مظاهرة مسلحة :

وفي هذا الجو خرجت جمعية اللواء الأبيض للشارع في الخرطوم والمدن السودانية الأخرى في مظاهرات مناوئة للانجليز ومساندة للقضية المصرية التي ارتبطت بقضيتهم . وقبض على أعضائها وأودعوا السجون في يونيه سنة ١٩٢٤ وحكم عليهم بمدد متفاوتة وصل بعضها الى العشر سنوات . ومات المغفور له عبيد حاج الأمين سكرتير الجمعية في السجن واستمر المرحوم علي عبد اللطيف يتنقل في سجون السودان حتى تأثرت صحته الجسمية والعقلية في آخر الأمر وقضى نحبه شهيداً من اجل بلاده . وفي أغسطس من نفس السنة

خرج طلبة المدرسة الحربية في الخرطوم في مظاهرة سياسية مؤيدة لمصر . وتمكن الجيش الانجليزي من محاصرتهم واستلام أسلحتهم ثم نقلوا الى وابور في عرض النهر ومنه للسجن العمومي في كوبر . وأوصدت أبواب المدرسة الحربية منذ ذلك الحين .

مقتل السردار وما اعقبه من اجراءات :

وسافر الوفد المصري برئاسة سعد زغلول في هذا الجو إلى لندن لمفاوضة ماكدونالد على التحفظات الأربعة فحركة الاغتيالات للبريطانيين لا زالت مستمرة والمظاهرات قامت في السودان مؤيدة للأماني المصرية وارتبطت في كفاحها مع الشعب المصري وقبل بدء المفاوضات عقد اجتماع في لندن تحت رئاسة مكدونالد حضره لورد اللنبي المندوب السامي في مصر والسير لي ستاك سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام اتفق فيه على أن تخرج مصر من السودان إذا لم تتعاون في الوضع الراهن هناك على أسس اتفاقية الحكم الثنائي . وتطرق الاجتماع الى وضع الخطة إذا ما نفضت يدها من السودان . وهي تكوين قوة دفاع سودانية ينفق عليها من عائدات زراعة القطن في الجزيرة . وكان معروفاً بالبداهة أن الهوة سحيقة بين وجهتي النظر . فسعد متمسك بتحقيق الأماني القومية في الاستقلال لمصر والسودان . ومكدونالد متمسك باستمرار الوضع على ما هو عليه في السودان . ورجع سعد بعد فشل المفاوضات وأصدرت الحكومة البريطانية كتاباً أبيض عن المفاوضات الفاشلة أكدت فيه أن السودان وديعة في يد بريطانيا ولا تسلم زمام الأمور فيه إلا السودانيين .

وفي نوفمبر بينما كان السير لي ستاك حاكم السودان العام في القاهرة راجعاً من اجازته اغتيل في شوارعها في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ وكانت وزارة مكدونالد سقطت واعتلت الحكم وزارة المحافظين وبعثوا بتبليغ بريطاني

يسلم الحكومة المصرية واستعجل لورد النبي وذهب بنفسه لرئـــاسة مجلس الوزراء في القاهرة تحف بـــه كوكبة من الفرسان الانجليز وسلّم التبليغ البريطـــاني لسعد زغلول . ووافق سعد على المطالب المعقولة مثل التحقيق ومحاكمة الجانبين ولكنه لا يستطيع الموافقة على مطالبهم المتطرفة وكان عليه ان يستقيل ويستدعي الملك زيور باشا ليؤلف الوزارة ويقبل كل المطـــالب وتنفذهـــا . وأهم المطالب التي تمس السودان هي اجلاء كل الضباط والجنود المصريين من السودان وتكوين قوة دفاع سودانية من الضبـــاط والجنود السودانيين في الجيش المصري على ان تدفع مصر ثلاثة أرباع مليون جنيـــه لنفقات قوة الدفاع .

حرب بين وحدة سودانية والجيش الانجليزي :

وباشرت السلطات الانجليزية في السودان تنفيذ اجلاء القوات المصرية ورفض قائد الطوبجية ان يبارح جنوده ثكنـــاتهم الا بأمر من الملك وبعث الملك برسول خاص على طائرة خـــاصة لابلاغه الأمر . وأثناء ذلك وصل الى مسامع القوات السودانية في الجيش المصري ان الطوبجية يقاومون امر الجلاء وهبّ بعض الضباط والجنود السودانيين للاتصال بزملائهم في السلاح وخرجوا من ثكناتهم بأسلحتهم وذخـــائرهم ولكن القوات الانجليزية التي كانت تحتل كلية غوردون تصدت لهم ومنعتهم من التقدم لكوبري النيل الأزرق . والتحم الفريقان في معركة حربية صمد لها السودانيون يومين حتى نفدت ذخيرتهم وبعد ان كبدوا الانجليز خسائر فادحة . وأخيراً تم القاء القبض على الضباط ونفذ فيهم حكم الاعدام رمياً بالرصاص ما عدا علي البناء . وقد أبلى في المعركة بلاء حسناً المرحوم عبد الفضيل ألماظ حيث مـــات شهيداً وهو قابض على مدفعه الرشاش وأعدم المغفور لهم حسن فضل المولى وثابت عبـــد الرحيم وسليمان محمد .

سياسة ضغط واذلال :

وفي ديسمبر سنة ١٩٢٤ تم جلاء القوات المصريـــة وأتبعتهم حكومة السودان بالمدرسين وبعض الموظفين المصريين . واقترح نائب الحاكم العام ونائب السردار متعاونين ازال العلم المصري والقضاء على اية صبغة قانونية لمصر لأنهما لا يستطيعان انشاء جيش سوداني مزدوج الولاء ولا تزال نزعـــات التمرد موجودة في صفوفهم . ويريان انه كان من الواجب انهـاء النفوذ المصري عقب مقتل السر لي ستاك مباشرة . ولكن لم يلق هـذا الاقتراح قبولاً من جانب الحكومة البريطانية ومندوبها في مصر اللورد لويد ولو أنه كان من غلاة المستعمرين . وبدأت حكومة السودان سياسة قمع وكبت وإذلال وصلت أحيانـــاً الى درجة السخف . فمن ضمن طرق إذلال السودانيين ان أصدروا الأوامر لكل المدارس الأولية ان يجلس التلاميذ على البروش في الأرض وينزلوا من المقاعد التي بيعت للجمهور بالمزاد وأمر التلاميذ في المدارس الابتدائية وفي كلية غوردون بكنس عنابرهم وفصولهم . وخصصت أيام يقوم فيهـا التلاميذ بأعمال لم يقصد منها إلا الاذلال كنقل الأتربة والرمال بدعوى نظافة المدارس. ومن ضبط متلبساً بقراءة الجرائد المصرية يعاقب بالجلد وربمـــا الطرد من المدرسة .

كانت فكرة الانجليز ان ثورة سنة ١٩٢٤ مـــا هي الا من آثار الدعاية المصرية وأموالهـا . وأوهموا بعض السودانيين ان نتيجة هذه الحركة رجوع المصريين للسودان وتحكمهم وسيطرتهم كما كانوا عليه قبل الثورة المهدية . وكان من يؤيد مقاومة الاتصال بمصر يلقى كل تأييد ومعاونـة من الانجليز . ولو كان الذين يثورون ويناهضون الانجليز يفعلون ذلك باغراءات المال فقط لما وصلوا الى درجة تعريض أنفسهم للتشريد والارهـــاب وبعضهم الى الموت . لأن اغراء المـــال وحده لا يصل الى هذه الدرجة . ولكنهم

يشعرون بدافع وطني ان ربط قضيتهم مع مصر هو أقرب الطرق لنيل حريتهم . وليست هناك بادرة تدل على ان الانجليز لهم خطة واضحة لتدرج السودان نحو الاستقلال أو حق الحكم الذاتي . ويرون استئثار الانجليز بالحكم ومحاربتهم للعلم والمتعلمين ولا يريدون من المدارس سوى تخريج موظفين يشغلون مناصب غير ذات مسئولية .

عين سير جوفري ارثر خلفاً للسير لي ستاك حاكماً عاماً للسودان في سنة ١٩٢٥ ولكنه لم يبق إلا قليلاً في منصبه حيث استقال . وعرف أنه كان على خلاف مع مساعديه الكبار الانجليز في السودان ومع المندوب السامي في مصر اللورد لويد وخلفه السير جون مافي وعاونه كسكرتير اداري سير هارولد ماكايكل . وتخطيط السياسة العامة في عهد مافي تأثر بسنة ١٩٢٤ وتركزت في تطوير الادارة الأهلية ومنحها سلطات كبيرة ، ومقاومة النفوذ المصري بالضغط على المثقفين ومراقبة طرق الإتصال بين مصر والسودان . وتكونت قوة دفاع في السودان وأصبح ولاءها للحاكم العام .

سياسة مافي وماكايكل الرجعية :

وفي سياسته نحو انشاء الادارات الأهلية لتحكم بحسب العرف والعادة تأثر بالوضع في شمال نيجيريا حيث أقره لورد لوجارد وناقش في مذكرته التي افتتح بها تنفيذ سياسة الادارة الأهلية الاختيار بين مسلكين . إما أن يشرك السودانيين في الحكم عن طريق السودانيين المتعلمين ورفعهم لوظائف ذات مسؤولية وإما أن يستخدم الزعماء والاعيان لحكم مواطنيهم بالعرف والعادة . واختار الطريق الثاني ورأى فيه ترياقاً مضاداً لتسلل الدعاية المصرية . وصدرت التشريعات بإنشاء تلك الادارات ومحاكمها وقام الاداريون الانجليز بحركات دمج القبائل في مجموعات كبيرة مما أثار استياء الكثير من القبائل الصغيرة التي أخضعت لزعامات اخرى . وناهضوا المحاكم الشرعية إذ

أرادوا نقل سلطاتها في بعض الأقاليم لتلك المحاكم الاهلية وأقفلت مدرسة تدريب نواب المأمير وكذلك المدرسة الحربية وأغلقت هذه المجالات أمام الطبقة المتعلمة وجمّد الجهاز التعليمي زيادة على الصدمة التي أصابته بجلاء الكثيرين من المدرسين المصريين ذوي الكفاءة والخبرة .

وسياسة مافي بمعاونة ماكايكل كانت ترمي في جملتها إلى رجعة للوراء . فالعمل بالعرف والعادة كان يرمي الرجوع الى عادات وتقاليد فقدت منذ وقت بعيد وبالمثل احياء سلطة المشايخ . وأصبح المفتش الانجليزي خريج أكسفورد وكمبردج لا يسر إلا في مجالسة المشايخ الذين يرضون غروره ويزوّر عن محادثة المتعلمين ،ودوّن هذه الحالة في مذكراته السير جيمس كري اول مدير للمعارف في السودان عندما زار البلاد مرتين في سنة ١٩٢٦ و١٩٣٢ حيث يقول « بعد الحوادث التي انتهت بمقتل ستاك انزعجت الادارةالبريطانية المحلية . فبالرغم من اخلاص السودانيين المتعلمين للحكومة صرنا نشاهد الاداريين من الشبان الانجليز يبحثونبنشاط واهتمام عن قبائل اختفت وعن زعماء صاروا في طي النسيان – كل هذا محاولة منهم لبعث نظام اجتماعيعفى عليه الزمن واختفى الى الأبد » .

اتفاقية مياه النيل :

ولنرجع مرة ثانية الى العلاقات المصرية – الانجليزية في نقطة حساسة بالنسبة لمصر وهي مياه النيل . فقد كان استرجاع السودان حسبما صرحت به السياسة الانجليزية هو ضمان وصول مياه النيل الكافية دون ان تتدخل فيها دولة اوربية تقيم سدوداً ومنشآت للري في أي نقطة في مجراه . وكلما أثيرت مسألة السودان في مصر واستئثار الانجليز بحكمه كان الانجليز منذ عهد كرومر يناهون بأن المصلحة الحقيقية لمصر في السودان هي ضمان وصول المياه للزراعة المصرية ووجود انجلترا في السودان فيه الضمان

الكافي لهم من هذه الناحية . ولكن حدث ما أثار مخاوف مصر في هـذا الصدد حيث تضمنت المذكرة الاولى التي قدمها النبي للحكومة المصرية عقب مقتل السردار نصاً يطلق يد حكومة السودان لزيادة الاراضي المزروعة قطناً في الجزيرة كما تريد ولا ترتبط بما اتفق عليه من قبل بين البلدين . وكان هذا النص موجوداً في مقترحات النبي عندما جهز هذهالمذكرة وبعث بها للتصديق النهائي من حكومته . ولكنه رأى ان يستعجل تسليم المذكرة لسعد قبل ان يستقيل وقبل ان يصله التصديق النهائي . وعندما وصل هـذا لم يتضمن هذا النص اذ حذفته الحكومة البريطانية . وسحب هذا بمذكرة خاصة بعد ذلك ولكن المخاوف مـا زالت . وبدأت أبحاث فنية ومفاوضات بين الانجليز والحكومات المصرية المتعاقبة الى ان تمت الموافقة على اتفاقية ميـاه النيل في في سنة ١٩٢٩ في وزارة محمد محمود باشا . وظلت سارية المفعول الى ان عدلت أخيراً عندما اصبح قيام السد العالي وترحيل أهاليحلفا أمراً واقعاً . وجرت محاولات بين الحكومتين المصرية والانجليزية للاتفاق على حل المسائل المعلقة بين البلدين والتحفظات الأربعة ولكنها كلهـا تحطمت وخاصة في سنة ١٩٣٠ على صخرة السودان .

الازمة الاقتصادية واضراب طلبة كلية غوردون :

وفي سنة ١٩٢٩ ظهرت بوادر أزمة اقتصادية عـالمية أثرت على أسعار القطن المحصول النقدي الرئيسي وعلى صادرات السودان الاخرى . وآفـات القطن قللت من محصوله وهبط بالتالي ايراد حكومة السودان لدرجة استدعى الامر ان يعين المستر فاس من الخزانة البريطانية ليعالج المشكلة وبريطانيـا ضمنت ديون السودان لمشروع الجزيرة . وشرع فـاس في تخفيض المصروفات بتقليل عدد الوظائفواقتطاع نسبة مئوية من الماهيات. ومن ضمن التخفيضات ماهيات خريجي كلية غوردون حيث اقتطع منهـا فاس ٣٠ ٪ فكان التلاميذ

يرزحون تحت الضغط الذي أعقب سنة ١٩٢٤ . وفي سنة ١٩٢٨ رجعت اول بعثة من المدرسين السودانيين ألذين أوفدوا لتلقي العلم في جـامعة بيروت الامريكية. وقد درسوا في جومن حرية القول والكتابة والعقيدةوالاجتماعات لم يألفوه في السودان واختلطوا بزملائهم طلاب البلاد العربية الأخرى . وعند رجوعهم نشروا بين تلاميذهم في كلية غوردون أفكاراً جديدة . ونقلوا اليهم صوراً عن حياة الحرية والتجديد هنـاك . وكانت هذه حالتهم كبت وارهاب وافكار جديدة نقلهـا لهم أساتذتهم عندما تناول مستر فاس مرتباتهم بالبتر .

وقرر طلبة كلية غوردون الاضراب وواصلوه بالرغم من محـاولات الآباء والزعماء الدينيين . وتكونت لجنة ضمت عشرة من كبار الخريجين للتوسط بين الحكومة والطلبة ونتيجة لذلك نزل التخفيض من ٣٠ ٪ الى ٢٠ ٪ . ورجع الطلبة الى دراستهم وتلقوا درساً من ذلك اذ علموا ان سلاح التعاون في الأضراب لا بد من انيأتي بنتيجة ما والعمل الجماعي هو اقرب السبل للوصول الى الهدف وعلم الخريجون ان وجود هيئة تمثلهم يكون لهـا وزن عندما تقوم بمعالجة مصلحة عامة . وكانت المحنة تلكالايام من حيث التهديد بالرفت وقفل كلية غوردون مدرسة عملية تلقوا فيها مبادىءالوطنية والتكتل بالصبروالجدل والمناقشة في المسائل العامة .

سياسة جديدة لجورج سايمز :

انقشعت سحب الأزمة الاقتصادية وعين سير جورج ستيوارت سايمزحاكما عاماً ومستر جيلان سكرتيراً ادارياً وختمت صفحة من أسوأ ما شاهدهـا السودان . إذ كان عهد الادارات الأهلية لتحكم بعرف وعـادة عفى عليها الزمن ورأى سايمز ان ينتهج سياسة جديدة من تقـارب مع مصر ومن تقليم لأظفار الادارات الأهلية ومن تقرب للمتعلمين . فقد دعا في سنة ١٩٣٥ بعثة

اقتصادية مصرية لزيارة السودان واستئناف العلاقات الاقتصادية الطبيعية بين شطري وادي النيل وساهم مساهمة فعالة في الوصول الى اتفـــاق بين مصر وانجلترا في المفاوضات التي انتهت بمعـــاهدة سنة ١٩٣٦ . ولو ان الوضع لم يتغير في السودان بنص هذه الاتفاقية الجديدة الا ان ملاحقها سمحت لارجاع فصيلة من الجيش المصري للسودان وبخلق وظيفة خبير اقتصادي يكون مقره الخرطوم ، ومساواة الانجليز والمصريين في الوظائف التي لا يوجد لهـــا سودانيون . وقرر في الاتفاقية ان الحكم الثنائي في السودان يهدف الى رفاهية السودانيين ولم يزد على ذلك .

وبعد امضاء اتفاقية سنة ١٩٣٧ نلاحظ تطورات في سياسة حكومـــة السودان وأخرى بين طبقة المتعلمين من السودانيين . فسياسة سايمز بدأت تعكس الوضع بالنسبة لسلفه . فقد عمد إلى الادارة الاهلية وشذبها وجعلهـــا تلائم مقتضيات العصر حيث أدخل فيها عنصر الشورى وأنشئت المجـــالس في البلديات وكذلك بدأ بالمجالس الريفية وفصـــل القضاء من الادارة في الادارات الاهلية . ورأت الحكومة إشراك المتعلمين في الحكومة المحلية حيث عين الكثيرين منهم في مجالس البلديات بعد أن باعدت سياسة مافي بينهم وبينها وأعيد فتح مدرسة نواب المـآمير لينخرط فيها خريجو كلية غوردون للتدرج في وظائف الادارة حتى مناصب المفتشين وسمح للخريجين أيضاً بتلقي التدريب الحربي يرقون بعده إلى رتب الملازمين في الجيش وانفتح بذلك مجالان أغلقهما مافي من قبل .

قيام مؤتمر الخريجين :

ورأينا سياسة تقارب واضحة بين الانجليز والخريجين من السودانيـــين وأسست دار للثقافة لتكون منتدى لهما لتبادل الآراء . غير أن الخريجـــين لم يكتفوا بذلك بل كان همهم منصرفاً لايجاد جهاز يقومون فيه بعمل جماعي

لمصلحة الوطن وقد جربوا التكتل عندما ألفوا لجنة من عشرة لتحل مشكلة رواتب الخريجين . وإمضاء الاتفاقية دون ان تستشار هيئة سودانية في الأمر كان الحافز لهم لتلمس الطريق نحو تكوين هذا الجهاز . وبرزت الفكرة اول ما برزت في الجمعية الادبية بنادي الخريجين بود مدني . ثم رؤي عندمابانت معالمها أن تنتقل الى اعرق نواديهم في أم درمان . وهناك بعد مناقشة امتدت إلى أكثر من شهر رؤي بتكوين هيئة تسمى « مؤتمر الخريجين » يجتمع أعضاؤها في عيد الاضحى المبارك لانتخاب هيئة ولجنة لتنفيذ أهداف المؤتمر . وبرز المؤتمر الى حيز الوجود في فبراير سنة ١٩٣٨ .

وكانت رغبة الذين قاموا على تأسيسه ان لا تقف دون ظهوره عوائـــق تودي به . لأن الانجليز بالرغم من التغيير الواضح في سياسة سايمز لم يكونوا على استعداد لمنح السودانيين مزيداً من الحرية والاشتراك في الحكم إلا بقدر ما يقدرون هم . ولذلك نشروا في دستورهم هدفاً متواضعاً وغامضاً اذ جعلوا منه هيئة تخدم أغراض الخريجين والبلاد عامة . وعندمـــا بعثوا بصورة من دستورهم للسكرتير الاداري رد هذا بأن الحكومة لا تمانع في قيام هذه الهيئة طالما كان هذا هدفها بشرط ألا يدعوا إلا تمثيل الأعضاء فقط . وكان هذا كل ما يطلبونه في البداية وهو قيام المؤتمر ولكنهم يبطنون هدفاً سياسياً واختاروا عدداً كبيراً من المعتدلين من بينهم لهيئـــة المؤتمر وانصرفوا في أول امرهم للتعليم الأهلي حيث قاموا بجمع تبرعات أعانوا بها عدداً من المدارس الوسطى الأهلية . وقامت الحرب وهم قد تركزت اقدام هيئتهم وباشروا العمـــل السياسي السافر اثناء الحرب ولكنه خارج عن نطاق بحثنا .

التقاء الخريجين مع السيدين :

ومن التطورات التي حدثت قبل سنة ١٩٣٩ والتي أصبح لها الأثر الفعـال في الحركة الوطنية اثناء الحرب وبعده وأدت الى الاستقـــلال هي موقف

السيدين علي المرغني وعبد الرحمن المهدي بصفتهما أكبر زعيمين لطائفتين دينيتين في السودان . فالأول خليفة للطريقة الختمية التي تأسست على يد السيد محمد عثمان المرغني في اخريات عهد الفونج وظلت يتزايد أتباعها طوال العهد التركي – المصري ولكن عندما قامت الثورة المهدية عارضها السيد محمد عثمان والد السيد علي ولجأ الى مصر وتوفي فيها وشب وترعرع ابنه السيد علي هناك . وعندما تقدمت فرقة من الجيش المصري بقيادة بارسنز باشا واحتلت كسلا كان السيد علي هناك حيث ترقد رفات جده السيد الحسن وحيث يدين السكان بالولاء ، والطاعة للطريقة الختمية . ولم يصل السيد علي الى أم درمان إلا بعد أن تم فتحها بعد موقعة كرري حيث استقر ومارس نشاطه الديني كمرشد لاتباع طريقته وكانت حكومة السودان تعتبره أكبر زعيم ديني وتعتبر طريقته ترياقاً مضاداً للانصار أتباع المهدية .

أما السيد عبد الرحمن المهدي فهو ابن المهدي وقد شاهد وهو صغير أخوانه الكبار يرمون الرصاص مع الخليفة شريف في قرية الشكابة على شرق النيل الأزرق جنوبي مدني . وكانت سياسة الحكومة ترمي الى اتخاذ كل الوسائل لعدم انبعاث روح المهدية مرة اخرى ولذلك لم تلتفت السيد عبد الرحمن ولم تضمه في مكان يماثل او يقرب من مكانة السيد علي ، وقد رأينا كيف ان روح المهدية لم تخمد حتى سنة ١٩٠٨ حيث ثار عبد القادر ود حبوبة واستدعى الأمر تسيير الجنود لاخمادها . ولكن عند افتتاح خط السكة الحديد للأبيض رأينا ابن المهدي يخطب ويشيد بتلك الخطوة من جانب الحكومة لتسهيل المواصلات وعندما قامت الحرب وقدم الزعماء رجال الدين والأعيان عرائض الولاء للحكومة ظهر اسم السيد عبد الرحمن مع أسماء علماء المعهد الديني . وسافر وفد التهنئة للندن في سنة ١٩١٩ وعلى رأسه السيد علي المرغني والسيد عبد الرحمن المهدي واعترف لهما كأكبر زعيمين لهما اتباع ومريدون في السودان .

وانتهج السيد عبد الرحمن سياسة التوسع في زراعـــة القطن وخاصة في الجزيرة (أبا) المقر الذي انبعثت منه أول شرارة للمهدية وبدأ القطن يدرعليه الأموال . وخشي الانجليز من هذا التوسع لأنهم لا زالوا يخشون انبعاث روح المهدية مرة ثانية والسيد عبد الرحمن بما عرف عنه من كرم واغداق على تابعيه سيقوي جانبه حتما وهذا ما يخشونه. وأصبحت سياستهم تتجه لماكسته من ناحيتين : الأولى منع المهـــاجرين من الغرب من الوصول اليه في أم درمان والجزيرة (أبا) ووقف توسعه في زراعة القطن حتى اضطر في آخر الأمر لأن يرفع عريضة للحاكم العام يشكو من هذه المضايقات . أما السيد علي المرغني فكانوا يعاملونه باحترام وتحفظ . وهو يعاملهم بالمثل متحفظاً في علاقته معهم غير مكشوف . ولكنهم لا يخشون خطراً مسلحاً من اتباعه مثلما يخشون من الأنصار أتباع السيد عبد الرحمن وهم يستريحون للخصومة بينهما حيث تلائم منهجهم في سياسة « فرق تسد » .

والذي يهمنا في هذا الصدد هو أنه تم تقارب وتفاهم بين الخريجين العاملين في الحقل الوطني وبين أكبر زعيمين فيالسودان لهما أتباعهما من الشعب .وبذلك امتد نشاط الحركة الوطنية الى صفوف الشعب عن طريقهما . وانقسم معظم الخريجين الكبـــار الى كتلتين تبعت كل منهما واحداً من الزعيمين فانتفع الخريجون باتباع السيدين وانتفع السيدان بمشورة من انضموا اليهما من الخريجين وعندما بدأ مؤتمر الخريجين عمله سافراً في الحقل السياسي كانت تسانده هذه القوى الشعبية المنتمية للسيدين وأخيراً عندمـــا تكونت الأحزاب السياسية كانت سنداً لحزبي الأمة والوطني الاتحادي ، ومن هذا يتضح لنـــا ان أثر الطرق الصوفية الذي بدأ في عهد الفونج تطور مع الزمن وأصبحت التكتلات السياسية الكبيرة في السودان الى عهد الاستقلال وقيـــام الأحزاب تستمد قوتها من الطائفة الدينية . وتطور الزعماء أيضاً مع الزمن ولم يتركوا القيـــادة تفلت من أيديهم .

فهرس

طبع على
مطابع دار الثقافة – بيروت

تاريخ السودان	نعوم شقير
جغرافية السودان	نعوم شقير
السودان عبر القرون	الدكتور مكي شبيكة
تاريخ شعوب وادي النيل	الدكتور مكي شبيكة
من بسمارك الى هتلر	فوزي جمال الدين
غضبة الهبباي	صلاح احمد ابرهيم
احكام الزواج والطلاق في السودان	ترجمة هنري رياض